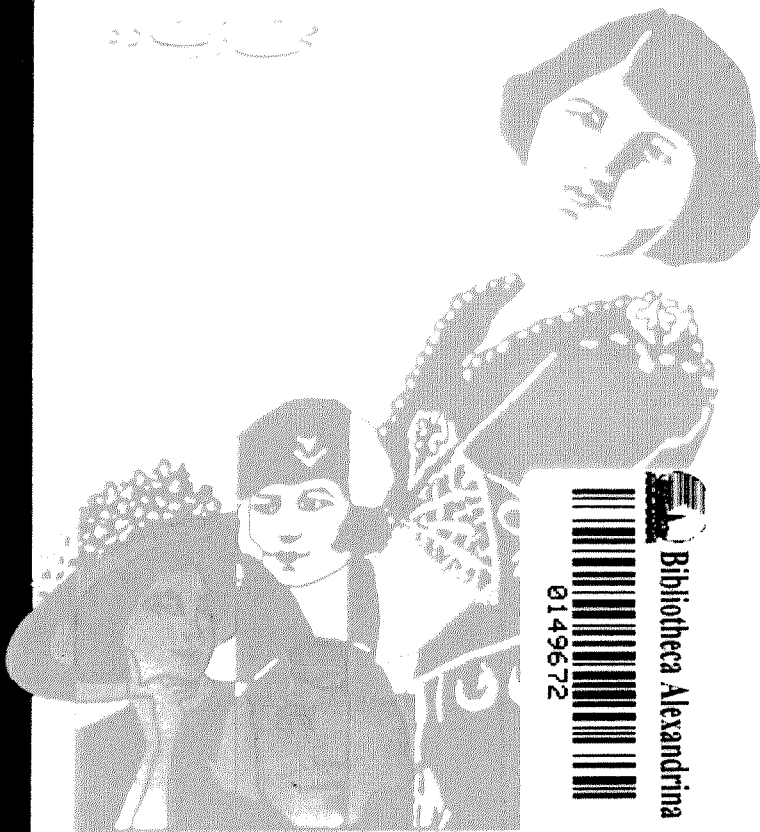


ابتسامات ودموع

محمّد



Bibliotheca Alexandrina



0149672



مؤسسة نوفل

ابتسامان و دوع

مي زياده

ابتسامات و دموع

أو
الحُبُّ الألماني

للروائي الشهير
فريدريخ موكس مولر



مؤسسة نوفل شرم

بيروت، لبنان

جميع الحقوق محفوظة للتأثير

الطبعة الثالثة

١٩٨٩



© مؤسسة نوافل شرمم

مكتبة نوافل، شارع المعتازات
شمارات ٣٥٤٨٩٨ - ٣٥٤٣٩٩ - شامخيل ٢٢٤١٠ نورث
ص.ب. ١١/٤١٦١ - بيروت - لبنان



فریدریچ مکس مولر

الى العينين اللتين أطبقها الموت
قبل أن أَلْثَمَهَا . الى الإبتسامة التي
لا أعرف منها إلا خيالها . الى الاسم
العذب الذي لا تهمس به شفّتي دون
أن تملأ عينيّ الدموع . الى الطفل الذي
رحل الى خالقه ويتّسم فيّ عاطفة الحب
الأخوي فحرمني من حنوّ الأخ وقبلته
وابتسامته ودمعته : الى أخي
الوحيد الذي تقاسمه الأثير والثرى

ميّ

مقدمة^١

أراني راغبة في تقديم الطبعة الجديدة بكلمة تشير الى كيفية تعريب هذا الكتاب ، وتوضح السبب الذي حملني على استبدال اسمه الأصلي «الحب الألماني» Deutsche Liebe باسم «إبتسامات ودموع» الذي عرف به لدى قراء العربية . وأن أشرح ما يتناول هذه الطبعة من تغير يبدو في كل جملة تقريباً ، ومن زيادة أتيت بها في صفحات كثيرة من أغلب الفصول .

على أي لا أكاد أذكر الترجمة الأولى إلاّ ويأخذ محيطي بالتلاشي ، ويسقط القلم من يدي لأحدّق في الصحيفة البيضاء كأنها آلة سحرية تستهوي الوسيط وتسطو عليه أسرارها . ولا يطول حتى تنتقش عليها صورة المكان الذي أظلمتني يومذاك سماؤه ردوت حولي أصواته . هاك حفيف الأوراق ، وتصفيق الأجنحة ، وتغريد الطييار على الغصون . ألا فاصغر الى وقع أقدام السائرين في الطريق الحمراء الضيقة المتلوية بين أشجار الصنوبر صعوداً الى قمة أشرفت على المرتفعات والمنخفضات

(١) كتبت ميّ هذه المقدمة للطبعة الثانية الصادرة عن مطبعة الهلال ١٩٢١ .

يسرةً وينةً ، شرقاً وغرباً . وأنظر جانباً الى صنين وقد أثقلت
ذروتَه ثلوجٌ حوّها انعكاس الأشعة ثغراً نورانياً يُسرُّ الى صدر
الفضاء بما توصله اليه أصداءُ الغبراءِ من شكايةٍ وتأوه . تنبثق من
جانبه سلسلة آكام تتساند مستديرة ، مستطيلة ، ناشزة ، وتظل
في انتقاص وتضاغر على انسجام وحسن دراية حتى تسجد بواقي
الصخور منها على الشاطئ . كأن أعالي صنين أنفذتها برسالة
الى البحر لتعود بالجواب عليها . والبحر ، آه ! ترى ماذا يقول
ذلك الأزرق الأفيح المائج يهدوء ودلال ، كأنه أرجوحة الأثير
تهزها أيادي آلهة الهواء لتنوّم فيها طفلاً عجيباً دهشت بحاله
السموات وافتسّنت الأرضين بغرامه ؟

نعم ، ها أنذا في ظهور الشوير بلبنان ، ذلك المصيف الهنيء .
نحن في صميم القيط وقد تقاطر المصطافون حتى ضاقت بهم المنازل
والفنادق . والجماعات التي تباينت أفرادها علماً وتهذيباً وارتقاءً ،
وتنافرت عاداتٍ ومشاربَ وأطباعاً ، ها هي تعيش تحت سقف
واحد ، وتتبع في أمور جمّة نظاماً فرداً وضع لضيوف النزل
جميعاً . ومن هذا الاجتماع بالغرباء ، ومحاذاتهم أياماً وأسابيعَ
وشهوراً ، والجلوس وإياهم حول مائدة واحدة مرةً بعد مرةٍ ،
وحدةً تُنشأ وتثبت بالتكرار ؛ فضلاً عن خبرة موفورة للدرس
أخلاق الناس ، وتمرينٍ ميسور في أساليب المعاملة والإرضاء .

بيد أني بعد الأحاديثِ المسلية والضحكِ والإثتناس أظل
شاعرةً بفراغ واسع ، أظل متسائلةً ماذا يعرف أولئك

المتنادمون المتسامرون المغتابون ، من بعضهم بعضاً ، أظلم تأثقة الى الوحدة والاختلاء تحت أشجار الحرج الصغير . لذلك سميتُ في أن يُبنى لي هذا الكوخ الضيق من خشب الغصون ويسقف بالأعشاب اليابسة ، وليس في داخله من حطام الدنيا سوى مقعد وطاولة نُصِّدت عليها كتب قليلة . وإنما دعي كوشي « الكوخ الأخضر » لأني جللت جدرانها من الداخل بنسيج أخضر . عدا عن أفنان مخضوضبة حنت عليه ، وخضرة غضة أهدقت به من كل جانب . هنا تعرفت بمكس مولر وبكتابه الجميل . تعرفت به في الخلوة لأن الأرواح الكبيرة تنكش في المحافل العادية ولا تتجلى إلا في العزلة لمن كان على استعداد لتلقي فيض بهاها .

كنتُ شرعت أدرس الألمانية في القاهرة إبان الشتاء ولم ينلني منها سوى عشرين درساً أو أكثر قليلاً . ولما تزودت بالكتب قبيل الرحيل أضفتُ إلى حقيقتي كتاباً ألمانيا لا غير ، هو « الحب الألماني » هذا . وقد وقع عليه اختياري لأن السيدة البروسية التي تتلمذتُ لها ذكرتهُ ممتدحة أسلوب مكس مولر المشبعَ فكرياً ومعرفة على سهولته ورشاقتها . ونسبتُ هذه الرشاقة وتلك السهولة إلى كون المؤلف شاعراً بفطرته وورائته رغم اشتهاره بالعلم والبحث ، وإلى كونه انجليزياً بوالدته كما صار بعدئذ انجليزياً بزوجته وباستيظانه انجلترا أعواماً طويلاً . فكان له من إجادة اللغة الإنجليزية ومعالجتها والتأليف فيها مساعد قويٌّ في تجريد جلته الألمانية من التطويل والصعوبة والابهام

الملازم لها غالباً عند كِتَاب الألمان ، لا سيما العلماء والفلاسفة .

أنشأتُ أتصفح الكتاب في عزلة « الكوخ الاخضر » ولم أفرغ من الفصل الأول حتى تملكنتني روحه الشعرية الفلسفية وأرهفتُ ذهني ، فتمكنتُ من الاحاطة بالمعنى العام وإن فاتني من معنى المفردات كثير . وما أتيت عليه إلا وعدتُ أراجع قراءته مراتٍ حتى ابتهجتُ بحاسنه نفسي المنفردة . وعلى قصر باعي بالعربية التي كنتُ نشرتُ فيها مقالات ابتدائية قلائل ، ومع اني لم يكن لديّ معجم ألماني ، استعنت بالقلم والقرطاس لأرسم بلغتي تلك الخطوط البديعة ؛ ولو كان لي مقدرة مكس مولر الفكرية والانشائية لما أفصحت عن حركات النفس بسواها . وقد قال لي أحد الأدباء عندما نشرت « ابتسامات ودموع » في ذيل « المحروسة » في الشتاء التالي ، قال : « أساءَ لي ذاتي ساعة أقرأ ذيل « المحروسة » أنتِ ناقلة مكس مولر إلى العربية أم هو ناقلك إلى الألمانية ؟ » . في هذه الكلمة ، التي تحال تلقاً للوهلة الأولى ، حقيقة أولية هي كل قوة الكاتب الوجداني الذي إنما نحكم له بالتفوق لأنه أحسن التعبير ، ليس عما يشعر به هو الكاتب ، بل عما نشعر به نحن القراء . وكيف لا نحكم له بذلك وهو الغريب الجاهل أسرار قلوبنا قد أطلع على خفاياها وبسطها لنا وللعالمين . وكتاب « ابتسامات ودموع » من هذا القبيل آية

سحر وبراعة ، لا يُقَصَّرُ على الوصف ، بل هو مهبط وحي
للنفوس الحساسة .



كان ذلك في صيف ١٩١١ وفي تميّظُ الفتاة الأولى ،
واستفسارُها الصامت ازاء المسائل الكونية والعمرائية
والروحية ، وأعجابُها المنتبه المتحفز للاهتمام والتحمس ؛ وفي
كذلك خجلُها وحيرتها وترددها .

وكنت كئيبة . كنت اكتب لغير سبب ، واكتب
للعوامل الدافعة بالاجتماع ، الشاغلة أفراده ليلاً ونهاراً . حتى
إذا احتमितُ بحمى الطبيعة والقيت عليها اتكال روحي رافقت
الكتابة حيي واتكالي . الكتابة خاتمة شعور الإنسان ازاء الجمال
والقباحة ، والخير والشر ، والعدل والظلم ، والكره والحب ،
والفوز والخذلان . إليها تنتهي حركات التأثر في جميع حظائر
النفوس كأن لا شيء وراءها سوى المبهم والمجهول والظلام
الدامس . أهى ناتجةٌ عن شعور المرء بضعفه حيال قوة العالم ،
وبعجزه عن تحويل الأشياء عن مجراها ؟ قد يكون . ولكن
الواقع ان التمشد والامتثال نهاية كل عاطفة وكل فكر ، كما أن كل
عمر بشري ينتم بارسال الزفرة وإسبال الجفون .

كنت قبلئذٍ أسيرُ لألوي على شيء ، ان وقعت عيني على

شخص ، أو طَرَقَ سمعي موضوع نظرتُ في هذا وذاك نظرة
استخبار سطحيّ . أما هناك فَطَفِقْتُ أُلقي على نفسي أسئلة
منطلقة من جهلي المتعطش إلى الارتواء . من أنا ؟ ما هو موقعي
في الدنيا ؟ لماذا تزعجني بعض الأحاديث ، وتسخطني بعض
الوجود في حين ارتاح لأحاديث أخرى وتجذبني وجوهٌ غيرها ؟
لماذا أحبُّ هذه ولا أحبُّ تلك ؟ لماذا ينفث هذا في روعي
وجوب احترامه فأسعد بتوجيه عاطفة جليلة إلى موضوع يليق
بها ، بينما ذاك الآخر لا يثلمني غير الهزؤ والامتهان ؟ لماذا
يُفرحني الناس وأفرحهم ؟ لماذا يؤلمي الناس وأؤلمهم ؟ ومن أين
لي ولهم هذه القدرة العميقة النافذة ؟ أسئلة نقضي العمر ناشدين
عنها أجوبة ولا نفوزُ قبل الموت بالجواب الشافي . وهكذا صار
كوخي الأخضر سجناً اختيارياً ، وشرفته نافذةً مفتوحة على
ميدان العجائب ، والغرائب وقد تسنى لي أن استعرضها
واتفحصها بفكري سائلة عن ماهيتها دون أن يكون ثمة سامع
أو مجيب .

الفكر ! ما أجدبَ الفكر إذا هو مُزج بطلاوة العاطفة
وخيمت عليه أو شحة الخيال ! عشت السنوات الأولى من حياتي
دون تفكير ، وها قد غدا الجناح الملون بألوان قوس السحاب
يضربُ جبهي ليُفسحَ له فيها وكراً فصار كلُّ موضوع ، وكلُّ

شخص ، وكل مشهد طبيعي ينفحني بتأملات زرقاء ، وردية ، ذهبية ، فضية ، رمادية تحوم حولي تارة ، وطوراً تجثم في متعانة مع ما في الكتاب على ايصالي الى روح الإنسانية. فأكاد اسمع دقات قلبها وصدى أنينها فأدرك أنها شقية يجهلها واضطرابها وهمومها ، وأنه قدّر على المختارين من بنينا ان يتألموا أضعافاً لأنهم السابقون إلى مقاتلة الجبول ، وكجميع الطلائع يتلقون ضربات المصادرة والمقاومة . فلا تضعف عزائمهم ، ولا تكلُّ أقدامهم ، ويشابرون على تلمس السبيل في حالك الظلمات ، ويسيروا إلى الأمام حاملين غنيمة الجهود الإنسانية والثقة بتحقيق الآمال .



والطبيعة ! يا لاستهواء الطبيعة وقد انتشرت الأشجار والصخور على الجبال والوهاد فرقصت هناك الأشعة وانسلت هنالك الاظلال ! يا لحشوعها وقد تجمعت منازل القرى حول قبعة الاجراس المنتصبة كالمسلة ، بل هي قامت في الوسط ككاهن مدّ يمينه نحو العلاء مبتهلاً وجئت حوله الرعية خاضعة ضارعة ! يا لبراعة الطبيعة بالتنوع في لبناني الجميل ! لقد تصرفت بجميع فنون الجمال فهي منه كل يوم في حلة جديدة وهيئة طريفة. فساعة تفرق الكائنات جميعاً في أوقيانس ضياء

يبهر الأنظار ويذهل العقول ؛ وساعة تزحف كتائب الضباب
 المتراسة من أطراف البحاز وتهجم فيالق السحب المتكاثفة من
 أقاصي الآفاق فتكتسح ما قام أمامها وتبسط رواقها الرمادي ،
 كأن العالم في دوره السديمي . ويعتدل النور والحرارة يوماً ،
 ويبرز روح التيقظ والكتمان فتصبح ألياف كل نبت ، وكل قطرة
 ماء ، وكل ذرة هواء ، شاعرة بسر الوجود الخطير ، تؤيد
 بحر كتها اللطيفة ضرورة مساعدتها وحقيقة كيائها ؛ ويخال الهواء
 حساساً كقلب الوهان داوياً كالنحاس الجوف . وأنا تبذو
 خطوط الموجودات ونبرات الأصوات بوضوح غير عادي ،
 وتنمو روعة الأشياء كأنها كبرت واتسعت وربضت في مجاهلها
 الأهوال باتفاق فجائي بين آلهة القدر . فيتولاني افتتان به ينقلب
 الزمن والمسافة سائلاً متحرراً أو عباباً متموجاً يحملني تياره
 الى حيث لا أدري من عوالم الخيال ؛ شأن الحياة الإنسانية
 الضعيفة الساذجة ، الإنسانية التي تجهل الغرض من تحركها
 ووجودها ولا تفتأ تذوب شوقاً إلى بلوغ غاية تزعم الاحاطة بها
 وهي في الواقع لا تعلم ما هي !

وكم خلت القوة الحيوية غباراً ذهبياً أو سيالاً أثرياً منبعثاً
 من البحر والجبال والكائنات جميعاً ؛ وكم عبدت الطبيعة
 عبادة حارة خاشعة كعبادة المتدينين والشعراء والمتممين ،
 أولئك الذين يقدسون الحياة خارجاً عن أشخاصهم ومحسورة في
 إليه ، أو رمزي ، أو إنسان ؛ وكم ملأت الدموع عيني شكراً

للحياة ، شكراً للطبيعة ، شكراً لجميع الموجودات ، شكراً
لهذا الكتاب الذي تتهادى بين سطورهِ خيالاتُ اليأس والأمل
والبكاء والابتسام والحب والموت واللا نهاية .

أظنني قلت في مطلع الكلام أن القلم سقط من يدي ، وكان
ذلك وهماً . ها هو القلم يجري على الصحائف قليلاً قليلاً
مستحضراً تلك الساعات تبعاً كما تتعاقب الصور المتحركة على
غطاءِ المسرح ، وما الألفاظ سوى رسوم إيمائية لحقيقتها . غير
أن النفس تدّخرها ككنوز ثمينة لأنها كبيرة الشأن في تطوّر
الروحي والفكري .

« الحب الألماني » كلا ، ليس هذا الكتاب حباً ألمانياً فقط
بل هو خلاصة بسمات الإنسان وعبراته . فسميته « ابتسامات
ودموع » . فإن كان ذلك تزيفاً لفكرة المؤلف الواجب احترامها
على كل مترجم ، فهو صادق من حيث اقتناعي الخاص ، أمين
للصورة التي ارتسمت منه في نفسي .



انتشر الكتيبُ ، وكادت نسخه تنفذ منذ ثلاثة أو أربعة
أعوام فحال دون طبعه اعتقادي بوجوب إعادة الترجمة .

لأنني وإن رأيت بسرور أنني ألمتُ بروح الكتاب إماماً يكاد يكون تاماً إلا أنه كان يخجلني ويسوءني معاً أنني أهملت طائفةً من الأفكار الجميلة والمعاني الرائقة التي لا يحوز الإغضاء عنها .

والآن أهدي اليك ، أيها القارئ ، هذه الطبعة الجديدة . لقد تقيّدت بالأصل معنىً وتعبيراً محاولةً إبرازه إلى العربية بصيغته الشعرية البسيطة خالياً من الاستعارة الغريبة والتنميق الشرقي . والألفاظ التي أكثر المؤلف من استعمالها مثل « حاولت » و « خيّل إليّ » و « ظننت » و « روحي » و « نفسي » و « قلبي » ، جميع هذه الألفاظ وغيرها وضعتها في أماكنها لأنها ضروريةٌ للغة التذكار .

وستحبُّ هذا الكتاب سواء أكنتَ معلماً أو متعلماً ، فيلسوفاً أو شاعراً ، سياسياً أو تاجراً ، سعيداً أو شقيماً ، كبيراً أو صغيراً . ستحبُّ فيه وبه كما حييتُ . ستتمو به وتتوحد وإياه حيناً فينتزعك من ميدان المزاومة والمنافسة والحقد والتهكم والحسد والإجهاد . ستتوحد وإياه مستدعياً ماضيك ، أو مفكراً في حاضرك ، أو مترقباً مستقبلك . أو هو يمثل لك فصولاً من ماضيك وحاضرك ومستقبلك

جميعاً في آنٍ واحد ، كائناتاً عمرك ما كان ، لأن العواطف
لا تقنئ القلب لا تدركه الشيخوخة . بل يسير جامعاً من
يأسه وآلامه وانتصاره واندحاره خبرةً وقوةً توصِلانه إلى سبل
جديدة ومعارف مطلوبة . وحسبه أن ينبّه فيك الذكرياتِ
الحلوة المرّة من مباحثات الحب والحياة والموت والابتسامات
والدموع ، وهي إرثُ بني الإنسان أجمعين .

مي

العلامة اللغوي مكس مولر

كان مكس مولر عالماً من شيوخ والعلماء واستاذاً جليل الشأن طبقت شهرته الخافقين وكان له اليد الطولى في وضع علم اللغات وتسهيل الاطلاع على عقائد الأمم الشرقية . وهو ألماني المولد انكليزي الموطن ولد بدساو من دوقية انهلت سنة ١٨٢٣ وأبوه شاعر ألماني أورثه قريحته وخيلته فامتاز من صغره بالذكاء وسرعة الخاطر وقوة الخيال حتى يكاد نثره يكون شعراً لما فيه من الصور الخيالية . وقد قال في هذا الصدد « اني ابن شاعر وقد بذلت جهدي العمر كله لكي لا أكون شاعراً » لكن الطبيعة لا تغلب والله درّ من قال .

وأسرعُ مفعولٍ فعلتَ تغييراً
تكلّف شيءٍ في طباعك ضدهُ

وكيف تغلب وقد ربي على ما ينميها ويقويها فقد كان بيت أبيه نادياً لرجال الأدب من الشعراء والمغنين حتى أنه علق صناعة الغناء وصار غرضه الأكبر ان يصير من كبار الموسيقيين وبقي

على حبه لها العمر كله درس في ليبسك وبرلين وباريس وامتاز وهو في كلية برلين بالاجتهاد وسرعة التحصيل وذهب مذهب كنت الفيلسوف الألماني ولم يعل عنه . ثم مال إلى درس اللغات الشرقية فنال منها النصيب الاوفر وبرع في السنسكريتية والفارسية وترجم الهيتوبادسا (كتاب قصص الهند) من السنسكريتية ونشرها وهو في العشرين من عمره . ثم انتقل إلى باريس ودرس على العلامة المستشرق الأستاذ ايجن برنوف ولم يكن على سعة من العيش لكن كان من حسن بخته أن صادقه البارون بنصن العالم الكبير فمد إليه يد المساعدة وكتب عنه إلى الارشديكن كارل الانكليزي يقول :

« لقد أوصاني بعض ذوي المقامات العليا بشاب عمره اثنتان وعشرون سنة له مقام كبير في عيني شلنغ (فيلسوف ألماني) أشهر نفسه بترجمته الهيتوبادسا من السنسكريت وهو واسع الاطلاع بارع في كل شيء ويود أن يقيم في انكلترا بضع سنوات . . وهو ابن الشاعر اللغوي المشهور وليم مولر والذي أعلمه من أمره أنه رائع الآداب رزين العقل » .

ويقال ان أعظم اكتشاف اكتشفه البارون بنصن لفائدة اللغات الشرقية هو اكتشافه مكس مولر . وقد ساعده البارون بنصن والأستاذ ولسن على الشروع في العمل الذي بقي عاكفاً عليه إلى أن ادركته الوفاة فوكلت إليه شركة الهند الشرقية

ترجمة الرغ فيدا كتاب ترانيم البراهمة وهو أساس الآداب السنسكريتية . وقال له بنصن حينئذٍ « لقد وكلت بعمل يكفيك العمر كله قطعة كبيرة لا تنسحت ولا تصقل الا في سنوات كثيرة لكن لا بد لك من أن تعطينا نُسْفاً منها من وقت إلى آخر » فجعلت هذه النُتف تنهال من قلمه كالطر . وبقي عشرين سنة في تحرير الرغ فيدا لكنه لم يقتصر عليه بل اشتغل بمواضيع كثيرة وبرع فيها كلها فدرس اللغة الانكليزية وصار من البلغاء فيها كلاماً وانشاءً وله الخطب الرنانة التي كان الناس يتقاطرون لاستماعها ولو كانت في اعوص المواضع اللغوية والفلسفية لبلاغة عبارتها وسهولة مأخذها . والكتب الكثيرة التي أعيد طبعها مراراً لرغبة الناس فيها . ومن هذه الكتب لغات دار الحرب (أي بلاد الهند) طبعه سنة ١٨٥٤ . وعقائد الأمم طبعه سنة ١٨٥٦ وتاريخ الآداب السنسكريتية طبعه سنة ١٨٥٩ وخطب في علم اللغات طبعها بين سنة ١٨٦١ و ١٨٦٣ وخطب في علم الدين طبعها سنة ١٨٧٠ وكتاب النُتف في أربعة مجلدات طبعت بين سنة ١٨٦٨ و ١٨٧٥ وخطب في أصل الدين ونحوه طبعت سنة ١٨٧٨ ومقالات مختارة طبعت سنة ١٨٨١ . ومقالات في ترجمات المشاهير من اصدقائه ومن معلمي بلاد الهند طبعت سنة ١٨٨٣ وكتاب في الدين الطبيعي طبع سنة ١٨٨٩ . وحرر الرغ فيدا في ستة مجلدات كبيرة فيها ثمانية آلاف صفحة متناً وشرحاً وقد فحصه سبع مئة من البراهمة فحكوا أنه

أفضل نسخة وأصلحوا نسخهم عليه . وحرر كتب المشرق الدينية وهي خمسون مجلداً . وله غير ذلك من الكتب والمقالات ومن آخر مقالاته مقالة في أديان أهالي الصين نشرت في جزء شهر (نوفمبر سنة ١٩٠٠) من مجلة القرن التاسع عشر .

وحالما ظهرت مقدرته في علم اللغات اختير استاذاً فيه ، في مدرسة اكسفورد الجامعة فأقام فيها نحو خمسين سنة . ولبعض العلماء مثل هكسلي وتندل وفوستر مقدرة فائقة على بسط المواضيع العلمية وهم يخطبون فيها حتى ترى الناس يتقاطرون الى نوادي الخطابة عن طيب نفس ولو كانت الموضوع من المسائل الطبيعية العويصة . فجرى مكس مولر مجراهم وبلغ الطبقة العليا بينهم فكان يخطب في علم اللغات وقد لا يقول شيئاً جديداً أو شيئاً لم يذكره أحد قبله ولكنه كان يفصح عنه على أسلوب يحتلب الأبواب لم يسبقه أحد إليه حتى ذاع اسمه في البلاد الانكليزية كلها وصارت خطبه من المواضيع التي يتحدث الناس بها في مجتمعاتهم وولاتهم وذهب كثير من أقواله أمثالاً .

ولم تكن آراؤه كلها مما يقوى على النقد والتمحيص ولا لقي الطاعة العمياء من معاصريه والتسليم التام لمقدماته ونتائج بل لقي من علماء عصره كل منتقد عنيد كما ترى في ما ذكرناه في المجلد السادس عن رأيه في أصل اللغات وانتقاد الأستاذ هوتي عليه . وكذا مذهبه في اشتقاق الشعوب الأوروبية من الشعوب الآرية

وتولد الأوروبيين والهنود من أصل واحد ومهاجرة الأوروبيين إلى أوروبا من قلب آسيا فإن كثيرين من نخبة العلماء يخالفونه الآن في هذا المذهب . ويقال بنوع عام أنه كان متطرفاً في مذهبه متسرعاً في أحكامه لكن لا ينكر أحد أن علم اللغات (الفيلولوجيا) الذي وضعه الأستاذ بوب سنة ١٨٣٥ لم يوسعه أحد مثل تلميذه مكس مولر . وكتابه في عقائد الأمم لا يخلو من آراء غير سديدة ولكنه هدى العلماء إلى مكتشفات عديدة في هذا الموضوع وأوضح كثيراً من الغوامض بذكاءٍ وعقله وقوة بداهته .

ولا شبهة عندنا في أنه وسّع نطاق علم اللغات ورغّب الناس في درسه وعلّم الأوروبيين والمشاركة أنفسهم كثيراً مما لم يكونوا يعلمونه من تاريخ لغاتهم ومعتقداتهم ولكننا نرتاب كثيراً في أن ذلك أفاد سكان المشرق سياسياً فقد بذل جهده مدة خمسين سنة ليقنع الانكليز أن الهنود أبناء أعمامهم لكن هذا لم يغير رأي الانكليز في الهنود ولا أفاد الهنود مثقال ذرة . ومن لا يقنعه قول انكتاب ان الناس كلهم من أب واحد وأم واحدة لا تقنعه آراء العلماء وأقوال الفلاسفة .

وكان رضيّ الأخلاق كثير الاصدقاء يقصده الزوار من أقطار المسكونة ويكاتبه الناس بلغات شتى . اختار انكلترا وطناً له لكن حب ألمانيا وطنه الأصلي لم يهجر قواده فلما نشبت

الحرب بين فرنسا وألمانيا سنة ١٨٧٠ نشر خمس مقالات في جريدة التيمس دافع فيها عن سياسة بسمارك وأقام الأدلة على أنه كان يقصد بها السلم لا الحرب . وبقي العمر كله عالماً ألمانياً بين العلماء الانكليز . وقد بذل الانكليز جهدهم في اكرام مثواه وخلقوا له منصب استاذية اللغات الأجنبية خلقة لكي لا يحرّموا فوائده ولا يدعوه بهجر بلادهم . ثم أبدلوها باستاذية علم اللغات (الفيلولوجيا) . ولما كثرت أشغاله وودّ أن يعفى من هذا المنصب لأنه لم يعد قادراً على القيام به عينت المدرسة استاذاً آخر نائباً عنه يقوم بابعائه وأبقت الاستاذية له . ولكن لما خلت كرسي استاذ السنسكريت وترشح لها هو والأستاذ الانكليزي مونير وليمس فضّل المنتخبون الأستاذ مونير وليمس عليه لأنه اكفى منه لهذا المنصب بل لأنه انكليزي ومكس مولر ألماني فاستاء من ذلك لكنه لم يحقد على الذين فضلوا غيره عليه . وود مراراً أن يترك اكسفورد وأما اكسفورد فلم تتركه وقد اكرّمته كما أكرمت أشهر تلامذتها وأعظم اساتذتها وكان الصلة المتينة بينها وبين علماء أوروبا ولا سيما علماء ألمانيا حتى أن امبراطور ألمانيا كان يبعث إليه بتلفراف التهنية كلما فازت اكسفورد في سباق أو نحوه .

توفي في الثامن والعشرين من اكتوبر سنة ١٩٠٠ في بيته بأكسفورد على أثر مرض عقام في كبده واحتفل بدفنه في غرة نوفمبر وحضر الاحتفال الجنرال غودفراي كلارك من قبل جلالة

الملكة والمهرشاز ستينورتز من قبل جلالة امبراطور ألمانيا وبعث
الامبراطور باكليل فاخر من الازهار البيضاء وضع على النعش
وقد كتب عليه « لصديقي العزيز » وبعث ملك اسوج اكيلا من
الزنابق . وحضر الاحتفال أيضاً ولي عهد سيام ونواب المدارس
الجامعة والجمعيات العلمية .

(المقتطف عدد تشرين ثاني « نوفمبر » سنة ١٩٠٠)

مقدمة المؤلف

الحرقه اللاذعة قلب من جلس إلى منضدةٍ طالما اتكأ عليها
صديق نام الآن في القبر ليستريح، ترى من لا يشعر بتلك الحرقه
بعد فراق الحبيب ؟ من ذا الذي لم يحاول ولو مرةً فتح أبواب
حفظت أسرار فؤاد يختفي اليوم وراء هدوء المدافن وجلاها ؟
هذه رسائل أحبها كثيراً ذاك الذي أجمعنا القلوب على
محبته . وهذه صور ، وأشرطة ، وكتب وضعت بين صفحاتها
العلامات والرموز . من ذا الذي يستطيع الآن قلبها ليستشف
الغاية منها ؟ وهل من يد سحرية تلم شمل هذه الوردة الممزقة
الجافة وتنثف فيها من جديد روح الحياة وأريجها ؟

كان اليونان يضعون موتاهم على فراش ناري فيلتهمها اللهيب .
واعتاد الأقدمون ايداع النار كل عزيز لديهم، وإنما النار مستودع
أمين لهاتيك الذخائر .

كذلك يقرأ الصديق الأسيف صحائف لم تقع عليها عينٌ غير
تلك التي أطبقت إلى الأبد . وإذا تثبتت من خلوها ممّا يعبا به

العالم يحملها بيد مرتجفة ويلقيها في النار ، فيضم اللهب وديعته
هنيهة ولا يطول حتى ينقلب وإياها رماداً .

لقد نجت الصفحات التالية من مثل هذا المقدور . ولم يكن
يراد في البدء سوى اذاعتها بين خلان الصديق الراحل . أما
وقد وجدت أصدقاء بين الغرباء فهي جديرة بالانتشار في العالم
الوسيع . وكان يودّ نشرها إظهارها على صورةٍ أتمّ إلا أن
الأوراق بالية في الأصل لا يتيسر نشرها بحذافيرها .

ف . مكس مولر

الذكرى الأولى

للطفولة أسرار ومميزات ولكل من ذا الذي يستطيع وصفها ! من ذا الذي يستطيع تعليلها ؟ لقد اجتاز كل منا ذلك العمر الذي تشبه ذكراه ذكرى غابة هادئة مسحورة ، وخبر يوماً فيه فتح عينيه المملوءتين بدهشة السعادة على سناء الحياة الجديدة الفائضة في روحه . يومذاك لا ندري أين نحن ومن نحن : بل العالم كله يخلصنا ونحن ملك العالم بأسره . حياة تحال دائماً بلا بداية ولا نهاية لا هم فيها ولا ألم . القلوب عندها صافية كسماء الربيع ، عذبة كعرب البنفسج ، مطمئنة قدسية كصباح أيام الأحد .

ماذا يطرأ على الطفل فيقلق فيه هذا السلام الإلهي ، وكيف تنتهي تلك الحياة المشبعة سذاجة وطهارة ؟ أيّ العوامل يحول معاني كيانه ، ويميت فيه الشعور بالاتحاد والتضامن ؟ أيّ العوامل يعلمه تمييز المفرد من الجمع ، فينتبه فجأة ليجد نفسه في معترك الحياة وحيداً كثيباً ؟

لا تقل ، يا ذا الوجه العبوس ، ان ذلك العامل هو الخطيئة !

أو هل يجني الطفل اثماً ويقترف ذنباً ؟ بل حري بك أن
تعترف أننا لكل شيء جاهلون وإنه ما علينا سوى
الاستسلام والامتثال .

أهي الخطيئة التي تنبت البذرة زهرة ، وتنضج الزهرة ثمرة ،
ثم تفنى الثمرة وتذرهما هباءً !

أهي الخطيئة التي تحول الحشرة دودةً وتجنح الدودة
فراشةً ، وتذر الفراشة هباءً ؟

أهي الخطيئة التي تسيّر الطفل رجلاً ، وتشعل منه الرأس
بشيب الشيخوخة ، ثم تهمد الشيخ جثةً ، ثم تذر الجثة هباءً ؟

وما هو هذا الحباء الذي تضيع فيه الصور ؟ ألا فاعترف
بأننا لكل شيء جاهلون وإنه ما علينا سوى الامتثال
والاستسلام !

ولكنه يحلو التلفت إلى ربيع الحياة وإلقاء نظرة على
هيكل التذكار ، سواء أكنّا من العمر في قيط الصيف أو حزن
الخريف ، أو زمهرير الشتاء . بل لا بد من ساعات فيها يناجي
القلب ذاته قائلاً « وأنا أيضاً أشعر بالربيع متيقظاً في » !

هذا ما أشعر به اليوم . وتراني مستلقياً على نديّ العشب في
الغابة العطرية لأريح جسمي المضني . أرفع بنظري إلى زرقة

السما البادية من خلال الوريقات الخضراء وأفكر « ترى كيف
كانت طفولتي » ؟

أخالني ناسياً كل شيء لأن صفحات الذاكرة الأولى تشبه
التوراة القديمة المحفوظة في العائلة أي أن أوراق الاستهلال منها
ذابلة متجعدة ملوثة ، ولا تتيسر القراءة إلا بعد صفحات
وصفحات ، عند السطور المحدثة عن طرد آدم وحواء من
الفرديوس .

طفولتي بعيدة العهد يفوتني كثير من حوادثها ولا أعني أيامها
القصوى ؛ أعود بأحلامي إليها ، وأنتقل منها إلى الأبدية التي
سبقتها، وتظل البداية المبهمة متراجعة أمامي كلما تتبّعها فكري
القاصر، لأن فجر الحياة يختفي في ظلمات الغفلة والحادثة . وأنا
في ذلك كالطفل يبحث عن نقطة ارتكاز السماء على الأرض
فيعدو حثيثاً وتلبثُ السماء مجدّدة آفاقها . فيتعب الطفل
وتكل قدماء ولا ينال من بغيته شيئاً .

على أنني ما زلت أذكر أول مرة رأيت النجوم وكانت
النجوم تعرفني منذ زمن طويل . كنت في ذلك المساء على ركبتني
والدقي، ورغم ذلك سرى البرد في جسدي واستولى عليّ الخوف ،
فانتبهت لذاتي الصغيرة انتبهاً غير عادي . ورفعتُ والدتي
اصبعها مشيرة إلى النجوم اللامعة . فدهشتُ وفكرتُ « بأي

لباقة صنعت أُمي كل هذا! وعادت الحرارة الى جسدي وأظنني
استسلمت للنوم .

وأذكر كيف اضطجعتُ مرة على العشب الأخضر وكل ما
حولي يوجُ ويهتزُّ ويطنُّ ويهمهم . فاقتربتُ مني جماعة مخلوقات
صغيرة مجنحة ذات أقدام متعددة وحلَّت على جبهتي قائلة :
« نهارك سعيد » . فشعرت بألم في أجفاني وصرخت منادياً
أُمي . فجاءت وقالت : « يا بنيَّ المسكين ، ها قد لسعتك
البعوض ! ولم أتمكن من فتح عينيَّ لأرى زرقة السماء . وكانت
أُمي تحمل طاقة بنفسج نضير فأحسست بالأريج المسكن ذي
الزرقة القاتمة يخترق دماغي . ومنذ ذلك اليوم ما رأيت باكورة
البنفسج إلا انتعشت تلك الذكرى في حافظتي فأغمض عينيَّ
لعلَّ سماء ذاك العمر تخيِّم عليَّ مرةً أخرى .

شفيتُ ، فانبسط أمامي عالم لم أعدهُ يفوق منه الجمال جمال
الكواكب ويفضلُ منه العطر عطر البنفسج . وكان صباح عيد
الفصح . فأيقظتني والدتي باكراً فوقفت أنظر إلى الكنيسة
القديمة القائمة إزاء النافذة . لم تكن جميلة كنيسة طفولتي ، إنما
كانت شاهقة ، جدرانها ذات منظر مهيب ، باذخة قبتها يعلوها
صليب مذهب ، وتبدو أقدم جميع المنازل المجاورة .

ولطالما تمنيتُ تعرّف من يسكنها فنظرتُ من شبك الباب
الحديدي ، وأطلتُ النظر مرةً وكان الداخل خاوياً خالياً رطباً

وليس ثمت نفس واحدة . فصرتُ أفزعُ كلما مررتُ بها فأعدو
طلباً للهرب .

ولكن في ذلك الصباح ، صباح عيد الفصح ، أمطرتنا السماء
في الضحى رذاذاً ثم بزغت الشمس في أبهى حلة من الأنوار
فبهجت جدران الكنيسة القديمة وتألقت سطحها المصنح الأشهب ،
ولمعت نوافذها الكبيرة ، وسطعت القبة بسناء صليبها الذهبي
سطوعاً مدهشاً تناول كل شيء منها وحواليها . وبدأ النور
السائل من النوافذ الكبيرة حياً متموجاً وأبهى من أن يمكن
التحديق فيه . فأغمضت عيني . إلا ان النور العجيب ما زال
يفيض على روحي جاعلاً جميع الأشياء لامعة عطرة ترون
وتنشد .

خلتُ حياة جديدة تنبض فيّ كأن شخصي الأول تبدل
بشخص آخر ؛ وإذا سألت عن الأصوات الفخمة المتصاعدة من
أعماق الكنيسة قالت والدتي ان هذا نشيد الفصح . لم يتسن لي
الى اليوم معرفة ذلك النشيد الذي هبطت أنغامه على روحي ،
ولا ريب انه من تلك المزامير الرائعة التي تسربت الى روح لوثر
الصارمة . ولم أعد أسمعه مرة أخرى . أما الآن فعندما أصغي
الى موسيقى بيتهوثن أو مزامير مارسلو ، أو أجواق هيندل
وأحياناً عندما أسمع الأغاني الساذجة في جبال اسكوتلندا
والتيرول ، أشعر بأن نوافذ كنيسة القديمة تسطع بنور باهر ،

وان عالمًا جديدًا ينفتح أمامي أجمل من عالم الكواكب
وأعذب من عرف البنفسج .

هذا ما علق بذهني من تذكارات طفولتي يتخللها وجه أمي
الحنونة وعينا أبي العميقتان ، وحدائق وأشجار وأعشاب مخملية
الخضرة ، ودالية تحمل العناقيد الناضجة ، وكتاب جليل حافل
بالصور الملونة ، التوراة . هذا كل ما أميزه على الصفحات الأولى
من ذاكرتي الذابلة .

لكن ما يعقبه واضح جلي*. أرى ملامح الوجوه التي اعتدت
مشاهدتها وأنا دي أصحاب هذه الوجوه بأسمائهم : أبي وأمي ،
وأخواتي وإخوتي ، والأصدقاء والمعارف والمعلمون وبعض
الغرباء ...

أواه ! يا حلالة تذكارتك الغرباء في فؤادي ! ويا لعمق
موضع روحي نقتت فيه أسماؤهم !

الذكرى الثانية

كان على مقربةٍ من بيتنا وإزاء الكنيسة ذات الصليب المذهب بناية شاهقة تعلوها قباب كثيرة . عظمت حتى صغرت حياها بناية الكنيسة ذاتها . وكانت قببها شهباء قديمة كقبب الكنيسة إنما لم تظهر فوقها الصليبان المذهب بل قامت على الجوانح نسورٌ حجرية وخفقت رايةٌ زرقاء على القبة العليا المطلّة على المدخل ، وقد امتد أمامه سلم يمنةٌ وآخر يسرة ووقف جندي يحرس كلاهما .

نوافذ المنزل عديدة تجلّلتها من الداخل الحرائر القرمزية تتدلى منها الطرر الذهبية . وأشجار الليمون المنتصبة في الساحة الفيحاء تغطي الجدران بوريقاتها الغضة وتنشر على العشب أريج أزهارها .

كثيراً ما كنتُ أرفع عينيّ الى هناك عند المساء إذ تطلق أشجار الليمون أعذب أنفاسها وترسل النوافذ أبهى أنوارها فأرى خيالات تجيء وتروح ، وأسمع أنغام الموسيقى مترددة من

أعالي القصر . ثم تمرُّ المركبات الى القصر فيترجل الرجال والنساء ويصعدون على الدرجات وعلى وجوههم سياء الصلاح والنبيل ، بينما نجوم الأوسمة تشع على صدور الرجال والورود والرياحين ترقص بين شعور النساء . فأفكر في بساطتي « لماذا لا أذهب أنا كذلك ؟ »

أخذني والدي بيدي يوماً وقال « ها نحن ذاهبان الى القصر . فتأدب . وإذا كلمتك الأميرة أجب باحتشامٍ وقبل يدها » . وكنتُ في عامي السادس ففرحتُ فرح أهل هذا العمر . وكنتُ أسمع الثناء الكثير على أخلاق الأمير والأميرة صاحبي القصر وما فطرا عليه من ميل الى الاحسان وعطفٍ على الفقراء ، فضلاً عن عدلٍ وانصافٍ بهما يمثلان الله تعالى على الأرض في معاقبة الأشرار والمعتدين . فحسبتُني أعرفها ، وحسبتُها نظير الصورة التي وضعتها لها بخيلتي . بل هما كانا من معارف القدماء لا كلفة بيننا ولا تكلف كأنهما بعض الأعيى وجنودى الحشبية .

صعدتُ في السلم وقلبي يدق بسرعة . وأخذ أبي يوصيني أن أقول « سموك » في مخاطبة الأميرة . ففتحت الأبواب ورأيت أمامي امرأة طويلة القامة ذات عينين براقيتين نافذتين ، تحال آتية توالى إليّ تمد يدها لأضع فيها يدي . ولما لحها هيئة ألفها ذهني ونصف ابتسامه محجوبة تلعب حول ثغرها بلطفٍ . فلم أتمكن من ضبط نفسي . وفي حين ظل أبي واقفاً قرب الباب

ينحني (لا أدري لماذا؟) انحناءً عميقاً خففت أنا الى السيدة الجميلة
وقلبي يقمز الى شفتيَّ ، ثم طوقت عنقها بذراعي وقبّلتها كما أقبل
والدتي . فظهر الارتياح على وجهها وداعبت شهري ضاحكة .
إلا ان أبي مسك بيدي ودفعني بجفاء قائلاً اني صبي شرير واني
لن أرافقه مرةً أخرى . فأخذتني الحيرة وصعد الدم الى وجنتيَّ
وشعرت بسهم يخترق فؤادي الصغير وان أبي يظلمني . نظرت
الى الأميرة استمد دفاعاً فلم أرَ في محبّاتها غير الرصانة واللطف .
وأدرت ببصري في القاعة ومن فيها من رجال ونساء لعلّي أجد
من يشاركني في ألمي فإذا بهم جميعاً يضحكون . فهطلت الدموع
من عينيَّ وسرتُ نحو الباب وهبطتُ السلم مسرعاً تحت أشجار
الليمون حتى وصلت المنزل والتقيت بأمي ، فرميت بنفسي بين
ذراعيها والشهيق يقطع صدري .

فقالت : « ماذا جرى لك يا بني » ؟

قلت : « آه لو تعلمين ! ذهبت الى الأميرة فوجدتها جميلة لطيفة
مثللك يا أماه فلم أتمالك أن طوقت عنقها بذراعي وقبّلتي
وجنتيها » .

فقالت : « وكيف فعلت ! هؤلاء الناس أشرف أمائل وهم
غرباء عنا » .

قلت: « ماذا يهمني كونهم غرباء ؟ أليس لي أن أحب كل من
نظر إليّ بعينين معسولتين باسنتين » ؟

قالت: « لك أن تحبّ من تشاء يا بني . ولكن عليك أن
تكتّم حبك ولا تظهر منه شيئاً » .

قلت: « ان لم يكن حبّ الغرباء جريمة فلماذا يحظر عليّ
إظهاره » .

فتنهدت أمي وقالت « انك لمصيب يا بنيّ . لكن عليك
أن تطيع والدك . وعندما تكبر سنّاً وفهماً تعلم لماذا لا يجوز أن
تطوق عنق كل سيدة جميلة ذات عينين جذابتين » .

وكان ذلك اليوم كئيباً . عاد أبي الى البيت وكرر لي أسأت
التصرف . وفي المساء سارت بي أمي الى سريري فبحثت
وصليت . غير اني لم أنم إلا بعد أرقٍ طويل متسائلاً من هم الغرباء
الذين لا تجوز محبتهم .

والوعته عليك يا قلب الانسان ! ان أوراقك لتجف في
ربيع أيامك والريش يتساقط عن جناحيك قبل الأوان . عندما
يبرز فجر الحياة في أفق النفس ينتشر فيه عير الحبّ . نحن
نتعلم السير والوقوف والكلام والقراءة لكننا لا نتعلم الحب ،
لأن الحب جوهر الروح وجميع قوى الروح تناديه بأصواتها

المختلفة . وقوة الحب أهم أصل غرسته الطبيعة في أعماق الكيان .
فكما تجذب الأجرام السماوية بعضها بعضاً بالجاذبية الأبدية كذلك
تجذب الأرواح المتآلفة بعضها بعضاً وترتبط الواحدة بالأخرى
برباط الحب الأبدي . هيهات للزهرة أن تعيش بلا شمس
وللإنسان أن يحيا حياة عظيمة بلا حب .

أليس ان قلب الطفل يكاد ينسحق انسحاقاً إذ تهبُّ عليه
من الجفاء النسمات الباردة الأولى في هذا العالم الزئبقي ؟
ولكن ها ان حب والديه يظلُّ لامعاً في أحاطهم كأنوار سماوية
وأشعة إلهية .

حنين الطفل أظهر أنواع الحب وأبعدها غوراً وأشملها
طبيعةً لأنه يحتضن العالم بأسره منسكباً على كل نظرة ودودة ،
ويهتزُّ لسماع كل نغمة عذبة . هو بحر عميق زاخر لا قرار له ،
وهو ربيع كنوز لا تُقدَّر وخيرات لا تحصى . وكل من اختبر
الحب عرف أنه لا يقاس ولا يكال ولا يوزن ولا زيادة فيه ولا
نقصان ، وإن الذي يحبُّ صادقاً يحبُّ بكلية قلبه وروحه
وبمجموع قواه وأفكاره .

لكن واحسرتاه ! ما أقل ما يبقى من هذا الحب بعد
الوصول إلى نصف رحلة الحياة ! عندما يعلم الطفل أن في العالم

« غرباء » ويفهم من هم أولئك الغرباء تنتهي أيام طفولته .
 فيختفي ينبوع الحب وتسحقه أقدام الأعوام والاختبار .
 ويوم يتلاشى لمعان العين الطاهرة فتحل محله خيالات التعب
 والريب ينظر الإنسان إلى أخيه نظرة الغريب إلى الغريب
 ويتحاشى الدنو منه في الشارع المزدحم . يمرُّ غير مسلمٍ خوفاً أن
 لا ترد التحية فتتوجع روحه ، لأن الإنسان ذاق مرارة الهجر
 من أصدقاء طالما بادلهم تحية الرؤوس وابتسام الشفاه ولمس
 الأيدي . الريش البهي يتساقط عن جناحي النفس ، وتحف
 وريقات الزهرة منها وتتمزق ، ولا يبقى من منهل الحب سوى
 قطرات قلائل لإرواء غليل الثائه في صحراء الحياة . تلك
 القطرات نطل ندعوها حباً . فأين هي من حبّ الطفل
 الفياض الجواد ؟

ليس ذاك سوى حبّ مزج بالشك والغموم ونار الانفعال
 المضطرم . حبّ يفني ذاته بذاته كقطرات المطر على الرمال
 الحارة . حبّ يطلب دواماً ولا يبذل يوماً . حبّ يسأل « أتريد
 أن تكون لي » ؟ ولا يقول « يجب أن أكون لك » . حب
 يستغرق نفسه ، ويذيب نفسه ، ويلاشي نفسه ، وهو معذب
 يائس . هذا هو الحب الذي تترنّم بوصفه الشعراء ويتوق إليه
 الفتيان والفتيات . شعلة تلتهب ثم تنطفئ ولا تدفئ ، وتذهب

تاركة بعدها الدخان والرماد . نحن نزعم يوماً أن هذه الأسهم
النارية انما هي آية الحب الدائم ، ولكن كلما استعرت تلك النار
وعظم لهيبها الموقوت قرب خبوها وحلكت ظلمة الليل الذي
يتبعها .

وساعة يسودّ الأفق ويدلهمّ حول الواحد منا فيرى نفسه
وحيداً شريداً بين السائرين يميناً ويسرةً دون أن يعيروه التفاتاً ،
إذن تنهض عاطفةٌ منسية وتتمشى في صدره ذهاباً وإياباً ، ولا
يدري أهى عاطفة حب أو عاطفة صداقة ، ويودّ أن يصرخ
لكلِّ من أولئك الغرباء « ألا تعرفني ؟ »

إذاك يشعر بأن الغريب أدنى إلى الغريب من الأخ إلى
أخيه ومن الأب إلى ابنه ومن الصديق إلى صديقه ، ويدوي في
طبقات ذاكرته صوت مجهول قائلاً ان هؤلاء « الغرباء » أقرب
أصدقائنا وأعزهم لدينا وأحبهم عندنا .

إذا لماذا نمرُّ بهم صامتين ؟ ذاك سرٌّ لا يُدرّك وما علينا
سوى الامتنال . عندما يمرُّ قطاران وأنت في أحدهما وفي الآخر
وجه يودّ أن يبتسم لك ، حاول مدّ يدك لمصافحة الصديق
المبتعد عنك قهراً . حاول ذلك وجرب به لعلّك تعلم لماذا يمرُّ
الإنسان بالإنسان صامتاً .

قال فيلسوف قديم : رأيت بقايا سفينة أغرقتها العاصفة
عائمة على صفحة البحر . يتلامس بعضها ويتلاقى الى حين . ثم
تهب الريح فتفرقها شرقاً وغرباً دون أملٍ في اللقاء . وذلك
مصير بني الإنسان في بحر الحياة ، ولكن ليس بينهم من شهد
غرق السفينة .

الذكرى الثالثة

غيوم الحزن لا تبقى طويلاً في جو حياة الطفل بل تتبدّد بتدفقها من عينيه دموعاً . لذلك عدتُ بعد أيام الى القصر فأعطتني الأميرة يدها وأتيت لي تقبيلها . وجاءتني بأولادها الأمراء والأميرات فأنشأنا نتقاسم الألعاب ونشارك في الملاهي شأن الذين يرجع عهد تعارفهم إلى سنوات خلت . تلك أيام هنيئة لأنني بعد ساعات المدرسة ، وكنت بدأت أذهب الى المدرسة ، كان لي أن أتوجه الى القصر فأجتمع برفاقي وبين أيدينا ما يشتهي قلب الطفل من لعبات ودمى أكثر ما أرثنيها والدي وراء زجاج الحوانيت الكبيرة ، قائلة انها باهظة الثمن قد تكفي الواحدة منها لإعالة العيلة الفقيرة أسبوعاً كاملاً . ومثلها كتب الصور الجميلة التي أبصرت أبي يقبلها عند أصحاب المكاتب ويقول انها لا تشتري لغير الاولاد الصالحين . ها هي لي الآن في القصر أقرأها وأتمتع في صفحاتها ساعات طويلة ، لأن كل ما يخص الأمراء الصغار يخصني ، أو بالأحرى هذا ما أزعجه . إذ لا تقصر حربي على استعمال ذلك المتاع الصباني عند أصحابه

بل أنا مخير في أخذ ما أريد منه الى البيت وفي التصرف به
ولإهدائه الى أولاد آخرين . وزبدة القول أني كنت اشتراكياً
بأوسع معاني الكلمة .

وكانت الأميرة تلبس يوماً أفعى ذهبية التفتت حول زندها
التفاف الحياة والإحساس . فدفعت بها الينا لنلهو . وعند الانصراف
لَوَيْتُ الأفعى حول ساعدي لأُرعِب أُمي في الظلام . فلقيت في
طريقي امرأة توسلت اليّ أن أريها الأفعى ففعلت . فتنهدت
وقالت انها لو ملكتها لخلص بئسها زوجها من غيابات السجن .
فلم أتردد لحظة في مساعدتها ، ومضيت أعدو تاركاً المرأة
والسوار الذهبي بين يديها .

وحدث في الغد جلبة وضوضاء إذ جيء بالمرأة الى القصر
ثبكي وتنتحب وقد اتهمت بأن اغتصبني الأفعى . فاستشطت
غضباً وصرّحت بتحمس وحدّة اني وهبتها السوار ولا أروم
استرداده . لا أدري ماذا جرى بعدئذ . على اني صرت منذ
ذلك اليوم أعرض على الأميرة كل ما أحمله معي إلى البيت .

مرّ زمن قبل أن تتسع أفكاري فأدرك معنى خاصتي
وخاصته . وطال اختلاط المعنيين في ذهني كما طال عجزي دون
التمييز بين اللونين الأحمر والأزرق . وآخر مرة ضحك مني
أصحابي لمثل ذلك ، كانت يوم أعطيتني والدي نقوداً لأبتاع تفاحاً .
أعطيتني عشرين بارة وكان ثمن التفاح نصف هذه القيمة . فقالت

البائعة بصوت خلته حزينا انها لم تبع شيئا منذ الصباح وليس لديها من النقود ما ترده إليّ ، وتمنت أن أشتري تفاحاً بعشرين بارة . فتذكرتُ ان في جيبي قطعة نقود أخرى من ذوات العشر بارات ، وسررتُ أن أحلّ المشكل بنقدها تلك القطعة قائلاً « الآن تستطيعين أن تردي العشر بارات الباقية » . فلم تفهمني المرأة المسكينة بل أعادت إليّ قطعة العشرين بارة واستبقت لنفسها قطعة العشر بارات .

كنت أذهب كل يوم أشارك الأمراء في ألعابهم وأتعلّم معهم الفرنسية . ومنذ ذلك الحين أرى صورة ترتفع من أعماق ذاكرتي ، هي صورة ابنة الأمير الكبرى الكونتس ماري التي توفيت والدتها أثر وضعها ، فتزوج الأمير بعدئذ بالأميرة الحالية . تتصاعد تلك الصورة في شفق ذاكرتي بتمهل وإبهام . فهي في البدء خيال سابح في الهواء يتشكل ويتكيف قليلاً قليلاً مقترباً مني ، حتى يقف أخيراً أمام نفسي ساطعاً كالبدر يشق حجاب الغيوم بعد زوبعة شديدة ويبرز فينير وجه الليل . كانت الفتاة أبدأ مريضة تتألم صامتة . ولم أرها حيّاتي إلا ملقاة على سرير نقال يحمله إلى غرفتنا رجلان ، ويحملانه منها إذا هي تعبت وأشارت . هناك كانت ترقد بين الأنسجة البيضاء شابكة يديها على صدرها ، ووجهها شاحب وإنما مليح لطيف وعيناها عميقتان لا قرار لغورهما . فأقف حياها مشئت الفكر ، وأحقد في عينيها متسائلاً ما إذا كانت هي الأخرى من « الغرباء » . فتمض

يدها على رأسي فتعتريني هزةٌ وألبث جامداً صامتاً بلا حركة ولا كلام ، وكل قواي تطل من حذقي على تينك العينين العميقتين اللتين لا قرار لهما .

كانت تكلمنا نادراً غير ان نظرها يرقب كافة ألعابنا . ولم تكن تنذر منها أفرطنا في رفع الصوت وإكثار الجلبة بل تنقل يديها الى جبهتها العاجية وتغمض عينيها كمن يستسلم للنوم . وتشعر بتحسن صحتها في أيام أخرى فتستوي فوق مضجعها ونرى على وجنتيها نضرة الفجر الباكر . فتحدثنا الأحاديث المسلية وتقص علينا الحكايات المدهشة . لست أدري كم كانت سنّها ، على انها كانت باعطلاها الطويل وضعفها شبيهة بالأطفال يداريها الجميع ، ويذكرونها برفق واحترام وينعتونها « بالملك » ولم أسمع عنها يوماً سوى الكلمة الطيبة . أما أنا فكنت أقف حياها خاشعاً ، وعندما أراها صامتة بائسة وأفكر في انها لن تعرف يوماً لذة النهوض والسير من مكان الى مكان بمجرد دافع الإرادة ، وانها ليس لديها من عمل تؤديه ولا من مسرة تتمتع بها بل ان سريرها هذا في الحياة إنما هو رمز نعش يضمها في الممات ، إذ ذاك أساء نفسي لماذا جاءت هذا العالم وهي أهل لأن تذوق راحة رضىة في حضن الله ، أو ان تُحمله على أجنحة الملائكة البيضاء على ما نراه ممثلاً في الصور المقدسة . ثم أشعر بوجوب مقاسمتها آلامها لئلا تقاسي وحدها جاهلة ان قربها قلباً يتألم لها ويحتمل معها . ولكن كيف أبوح لها بما يحول في خاطري

وأنا غفلت عن وجوده ؟ كل ما كنت أعلم انه لا يجوز لي أن ألقى بنفسي على عنقها لئلا أسبب لها كدراً وغمماً . فأكتفي بالابتهاال الى الله من أعماق قلبي أن يريحها من سقامها .

أدخلت علينا في يوم حار من أيام الربيع وهي شاحبة كل الشحوب ، أما عناها فكانتا أشد لمعانا وأبعد غوراً . فجلست على مضجعها ونادت بنا وقالت « اليوم تذكرك مولدي . جذا العيشة معكم طويلا ولكن قد يدعوني الله إليـه في القريب العاجل . ولما كنت راغبة في أن لا تنسوني تماماً بعد رحيلي جئت كلاً منكم بخاتم يلبسه الآن في السبابة ويظل ينقله الى الأصبع المحاذي كلما مرت الأعوام حتى يستقر في الخنصر وهناك يبقى مدى الحياة » .

وعمدت الى خواتم خمسة في أصابعها فنزعتهما الواحد بعد الآخر وعلى وجهها إمارات حزن عميق يملزجه حبٌ ولين . فأغمضت عيني كيلا أبكي . فأعطت أخيها الأكبر الخاتم الأول وقبلته ، ودفعت الخاتمين الثاني والثالث الى أختيها الأميرتين ، وكان الخاتم الرابع نصيب الأمير الأصغر ، وقبلتهم جميعاً . وكنت أقف قربها محذوفاً في يدها البيضاء وفي الخاتم الوحيد الباقي في أصبعها . ثم استلقت على سريرها منهوكة القوى فتبع حركتها نظري والتقي بنظرها ففهمت بلا ريب ما يدور في خلدي . وسمعت ما يهمس به قلبي لأن الحائط الأطفال شديدة التعبير بليغة المعنى . حزنت لأعراضها ، ولو حاولت مراضاتي

لأن ما رزيت أن أنال الخاتم الأخير لأن التخلّف إنما يدلُّ على
إني غريب لا تخصّني بإعزاز ولا تحبّني محبتها لاختوتها وأخواتها .
وصرت متوجعاً كمن فتح أحد عروقه أو قطع بعض أعصابه ،
ولم أعد دُري انّي أوجه نظري لأخفي كربتي .

فجلستُ من جديد ولمستُ جبهتي مرسلّة في عيني نظرة
استقصاء واستقرأ أشعرتني بأن ما من سرٍّ فيّ إلا اكتنّته الفتاة
وما من فكرٍ إلا قرأته . وسحبتُ الخاتم الأخير من يدها متمهلة
وقالت : « وددت أن يصحبني هذا الخاتم يوم أفارقكم ولكن
ألْبسه أنت فذلك خير . وفكر فيّ عندما أصير بعيدة عنكم .
اقرأ الكلمات المنقوشة عليه « كما يشاء الله » . أما قلبك هذا
ففعم حرارة ورقة ، ألا فلتروضه الحياة وتتمه دون أن
تقسيه ! ثم قبلتني كما قبلت اخوتها وأعطتني الخاتم .

ما أصعب الوصف وما أعصاه ! يومذاك كنت أكاد أكون
صبيّاً ، فكيف يتقلّت قلبي من سحر ذلك الملك المتألم ولطفه ؟
كنت أحبها كما يحب الصبي ، والصبيان يحبون بحرارةٍ وصدق
وطهارة قلٍّ منهم من يحبّها في الشبيبة والرجولة ، على اني
ذكرتُ انها من « الغرباء » الذين حرّمت عليّ المجاهرة بحبهم .
إنما شعرتُ بتقارب روحينا وتلامسها بأرق ما تتلامس به
أرواح البشر . زالت المرارة من قلبي ولم أعد أشعر بأنني وحيد
في العالم ، ولم أعد أشعر بأنني غريب عنها تفصل بيننا هوة أو

مرتبة . كنتُ معها ، كنتُ قريبها ، وكانت رُوحِي تلمس
روحها ، فحسبي .

ثم رأيتُ ان استبقاه الخاتم الذي ودَّتُ أخذه الى القبر ،
رأيتُ ان استبقاه معي حرماناً لها ، وتعاليتُ في نفسي عاطفة
طفتُ على كل عاطفة سواها فقلتُ مضطرباً « احتفظي بالخاتم
ان شئتُ أن يكون نصيبي . لأن ما لك هولي » فأطالت النظر
في وجهي دهشةً متأملة ، ثم تناولت الخاتم ووضعتُه في أصبعها
وقبَّلتُ جبَّتي مرةً أخرى وقالت بصوتها العذب الرقيق « أنت
لا تدري ماذا تقول ، أيها الفتى ، فحاول أن تفهم نفسك لتسعد
وتُسعد الآخرين » .

الذكرى الرابعة

نحتاز من العمر أعواماً يماثل تتابعها مرّاً طويلاً قامت على جانبيه أشجار الحور تحجب عنا استدارة الأفق فنظّل جاهلين أي الأنحاء نجوب ، ولا نحفظ منها سوى كئيب الذكر إنسا قطعنا من الأيام مراحل وتقدمنا في السن . ونلهو في حداثتنا بمراقبة المد المنبسط من نهر الحياة فيلوح لنا المشهد واحداً وان تغيرت منه المناظر وتجددت على الشطين . فإذا ما بلغنا شلالات الحياة ، شلالات الجهاد والعناء والألم ، كان عملها في نفوسنا شديد الأثر ، وكلما ابتعدنا عنها زاد تعالي صخبها وهديرها وضجيجها . حتى إذا أخذنا في الدنو من أوقيانس الأبدية اجتلى في ذهننا معناها ، ووضحت لنا أهميتها ، ف شعرنا بأن القوة التي ما فتئت تمدنا بالنشاط والفطنة والحكمة وما زالت تسوقنا الى الأمام نحو غاية سامية إنما تلك الشلالات أصلها ومصدرها ، ومنها منهلها الذي لا ينضب .

انقضت مدة دراستي ومضت معها أوقات السرور والخلوّ وذوى من أحلامي الجميلة كثير ، على انه بقي لي إيمان بالله

وحسن ثقتي بالبشر . رأيت الحياة شديدة الاختلاف عما صورته
 مخيلتي ، ولكن الشؤون بدت لادراكي كبيرة مهمة تزينها المعاني
 الرفيعة السامية . وما أشكل منها وجلب غماً والمأ صا في
 تقديرى أقوى شاهد على ان يد الله تدير حركات الكون فليس
 لمقولنا المحدودة أن تحصر تلك الحكمة المتناهية . « لا يقع شيء
 إلا بإذن الله وسماحه » غدا هذا المبدأ الفلسفي موضع راحتي
 وتعزيقي .

عدت في عطلة الصيف الى بلدي . فرح العودة وفرح اللقاء ،
 من ذا منا يشرح أسبايه ؟ من ذا الذي يتفهم لذة تنبوقها في
 أن نرى مرة أخرى ما رأيناه من قبل ، وأن نجد من جديد ما
 سبق وعرفناه قديماً ؟ يكاد يكون التذكار سرّ كل تمتع وكل
 مسرة . قد يكون ما نراه ونسمعه ونذوقه لأول مرة جميلاً
 مرضياً لذينا على انه يدهشنا يحدته وغرايته فلا يتم الهناء به لأن
 مجهود السرور يجيء غالباً أقوى من السرور نفسه . ولكن إذا
 سمع المرء بعد مرور أعوام نعمة قديمة كان يزعم انه نسي كل نبوة
 من نبراتنا فعرفتنا روحه وعانقتها كأنها صديق عزيز ؛ أو وقف
 أمام صورة العذراء ناظراً في عيني طفل تحمله فتنبت فيه
 عواطف اعتادها عند هذا المشهد في صغره ؛ أو استنشق زهرة ،
 أو ذاق طعاماً لم يذكره منذ زمن الحداثة ، شعر بلذة لا يدري
 لعينها أهي آتية من السرور الحاضر وحده أم هي جمعت بين
 أطيب الساعة المارة وتذكارات عهد مضى .

كذلك يعود الطالب منا الى وطنه بعد غياب أعوام فتخوض نفسه بحر خواطر تحمله منه الموجات المترنحة نحو شواطئ الأيام القصية ، وإذ يسمع ساعة البرج تدق يضطرب خوفاً من التأخر عن ميعاد الدرس ثم يعود من رعبه جـذلاً بانقضاء أيام الدراسة . يرى كلباً يعبر الشارع هو الكلب الذي طالما لاعبه في الماضي ، وها هو الآن قد كبر ، شاخ حتى قام الفراغ مقام أنيابه . وهاك بائع السلع المتجول الذي طالما جربتنا تفاحاته وما زالت في حكنا ، رغم غبارٍ يلتصق بها ويغلفها ، أشهى صنوف التفاح في العالم . وهناك هدم منزل قديم وشيد غيره مكانه . ذاك كان منزل معلم الموسيقى . ما كان أبهج الوقوف تحت نوافذه في ليالي الصيف والاصغاء الى ما يبتكره ارتجالاً التسلية بعد ساعات العمل الطويلة ، فتنتطلق الألحان كأنها بخار تجمّع في نفسه خلال النهار فأنشأ يعتقه ليلقي عنه حملاً ثقيلاً . وهنا في هذا الزقاق الضيق الذي كنت أخاله أوسع قليلاً - هنا اجتمعت ليلة بابتنة الجيران الجميلة . لم أكن فيما مضى لأجرأ على محادثتها والنظر إليها . على إننا نحن الصبيان كنا نتناقل أخبارها في المدرسة ونسميها « الفتاة الحسنة » . فإن رأيتها آتية في الشارع عن بعد اغتبطت لهذه المصادفة دون أن أطلب الدنو منها . وكانت انها مرة في هذا الزقاق المؤدي الى المقبرة اتكأت على ذراعي وسألتنى أن أسير بها الى البيت . مشينا ولم ننس بكلمة طول الطريق . كنت صامتاً وظلت هي ساكنة ، ولكن سروري كان من الشدة بحيث إني الآن بعد مرور أعوام ،

ان ذكرت تلك البرهة تمنيت انقلاب الزمان ورجوع ما لا يرجع
ليتسنى لي السيور مرة أخرى صامتاً سعيداً تستند على ساعدي
« الفتاة الحسنة » .

وهكذا تتوارد خاطرة أثر خاطرة حتى تعجّ موجات
التذكر فوق رؤوسنا ، ونرسل زهرة تلفتنا الى ان الهجس أقلق
انتظام التنفس منا . فيختفي عالم الأحلام بغتة كما تتلاشى الأشباح
عند صياح الديك في الضحى .

ولما مررتُ أمام القصر القديم المحاط بأشجار الليمون
ورأيت الحراس على خيلهم عند الدرجات العاليات توافدت
التذكارات متلازمةً في خاطري واكتأبتُ لدوران الأيام . لم
أدخل هذا القصر منذ أعوام عديدة . لقد توفيت الأميرة ،
واعتزل الأمير خدمة الحكومة وسكن منزلاً منفرداً في إيطاليا ،
وصار نجله الأكبر الذي نشأت وإياه نائباً عنه . يقيم في هذا
القصر تحفٌ به بطانةٌ من شبان الأشراف والقواد يتمتع
بحديثهم ويهنأ بعشرتهم ، فكيف لا يحسب أصدقاء طفولته
غرباء عنه ؟ وما رغبتني في الابتعاد إني ككل شاب ألمانيّ عرف
احتياج الشعب الألماني من جهة وخطأ الحكومة الألمانية من جهة
أخرى ، كنت انضممت الى حزب الأحرار واعتنقت نظرياته
المغايرة لنظريات بلاط الملوك كل المغايرة .

نعم ، منذ أعوام لم أصعد على ذلك الدرج . ورغم ذلك

ألفظ كل يوم اسماً قطننتُ صاحبتُهُ في هذا التتصر ومثلتُ صورتها في ذهني لا تبتعد عني . اعتدت فراقها الجسدي لأنها نمت خيالاً جيلاً وثقتُ من أن لا أصل له في الواقع . صارت ملكي الحارسي وذاتي الأخرى ، أحادثها ساعة أحادث نفسي ، وأستشيرها وأعمل بنصيحتها . لست أدري كيف تجسمت في إلى هذا الحد على قلة معرفتي بها . ولكن كما ان النظر يبدع من السحب أشكالاً كذلك حفظتُ ذكرى طفولتي رؤياها اللطيفة وكونت من خطوط الحقيقة الضعيفة الواهية صورةً كاملةً بارزةً . أصبح تعاقب أفكارني محاورة بيني وبينها ؛ وما هو حسن في ، وكل ما أتوق إليه ، وأسعى في سبيله ، وأومن به - ، كل ذاتي المثلى كانت تخصها ، كانت مهداةً إليها كما أنها آتية من روحها ، من روح ملكي الحارس الأمين .

أقمت في بيتي العتيق أياماً فجاءني في ذات صباح رسالة مكتوبة بالانجليزية من الكونتس ماري ، وهذا نصها :

« صديقي العزيز

« بلغني أنك ستقيم هنا زمناً . نحن لم نلتق منذ أعوامٍ طويلة . فإن أرضاك ان نلتقي مرة أخرى فلإني أسرُّ كل السرور بمشاهدة صديق قديم تجدني وحدي بعد ظهر اليوم في الكوخ السويسري

« لك بإخلاص

ماري »

فجاءت فوراً بالإنجليزية اني سأزورها في الموعد المضروب .
ولم يكن الكوخ السويسري سوى جناح من القصر يفتح على
الحديقة ويتيسر الوصول اليه دون المرور في ساحة القصر
الكبرى . ولما أزلت الساعة الخامسة اجتازت الحديقة متغلباً على
انفعالي ، متهيئاً لمقابلة رسمية ، مؤكداً « للملكي الحارس » في
داخلي ان لا شأن لي مع هذه السيدة . ولكن ما معنى قلقي
واضطرابي ، ولماذا لا يوحى إليّ « ملكي الحارس » ما اتطمئن به
وأرتاح اليه ؟ أخيراً تشجعت هامساً لنفسي بكلمات سخرية بالحياة ،
وطرقت باباً كان نصف مفتوح .

وجدت في الغرفة سيدة لا أعرفها خاطبتني بالإنجليزية وقالت
ان الكونتس آتية في الحال . ثم خرجت وتركتني وحيداً ولديّ
الوقت الكافي لألقي نظرة على ما يحيط بي .

كانت جدران الغرفة من خشب السنديان يدور حولها نقش
برزت فيه وريقات اللبلاب وتصاعدت معرشة في السقف .
كذلك كانت الطاولات والكراسي وأرض الغرفة من خشب
السنديان وقد تحاذى فيها الحفر والنقش . وتوزع هنا وهناك
كثير من أمتعة ألقتها في غرفة ألعابنا القديمة وقد أضيف اليها
أمتعة جديدة ، لا سيما الصور والرسوم . وكانت هي الصور
بعينها التي اخترتها لتزيين غرفتي في الجامعة : فوق البيانو صور
بتسوفن وهيندل ومندلسمن ؛ وفي إحدى الزوايا زهرة ميلو وهو
في تقديري أتم وأبدع تمثال أبقت له المدينة القديمة . وعلى

الطاولات كتب دانتى وشكسبير ، ومجموعة مواظ تولر ،
وكتاب « اللاهوت الألماني » وأشعار روكرت وتنسن وبورنز ،
وكتاب كارلايل « الماضي والحاضر » ، وهي الكتب نفسها التي
كنت أقلبها قبل أن أجيء إلى هذا المكان . فاجتذبت إلى
دائرة التأمل ، بيد أني حاولت التملص منها ووقفت أمام صورة
الأميرة المتوفاة . عندئذ فتح الباب ودخل الرجلان اللذان
عهدتهما في حديثي يحملان الكونتس على سريرها .

يا لعذوبة تلك الرؤيا ! كانت صامتة لا تتحرك وبقي وجهها
هادئاً كصفحة البحيرة حتى غادر الرجلان الغرفة . إذ ذاك
حوّلت نحو عينيها ، تينك العينين القديمتين اللتين لا يدرك
غورهما ، وتألّق وجهها فانقلبت كل هيتها ابتساماً . ثم قالت :
« كنا صديقين ولا أظننا تغيّرنا في صداقتنا . لذلك لا يمكنني
أن أقول « أنتم » . وحيث أن العادة لا تسمح بأن أقول « أنت »
بالألمانية فلنتخاطب بالإنجليزية^١ . أليس كذلك ؟

لم أتأهب لمقابلة كهذه . رأيت أن لا تمثيل هنا ، ولا مجاملة ،
ولا رياء . هنا روح تتوق إلى روح أخرى . هذا ترحيب صديق

(١) الألمان كالفرنسيين لا يستعملون ضمير المخاطب المفرد « أنت »
إلا بين أفراد العائلة وبين الأصدقاء الأحباء . أما الإنجليز فيخاطبون الجميع
حتى الأقربين بالجمع . ولا يستعمل عندهم المخاطب المفرد « أنت » إلا في
الصلاة والشعر وما نحوه من مناهج البلاغة (العربية)

عرف عينيّ صديقه وراء الوجه العارية ورغم التنكّر الاتفاقيّ .
فأخذتُ يدها التي مدتها إليّ وقلت : منْ حادثَ الملائكة
لا يقول « أنتم » .

ولكن ما أعظمها قوة سُبكت في قوالب الحياة
واصطلاحاتها ! ولم يتعذر التكلم بلغة القلب حتى مع أشبه
الأرواح بأرواحنا ! تعذّر ذلك علينا فاضطرب حديثنا
وتضعضت أفكارنا وشعرنا بارتباك مزعج حاولتُ التخلص
منه بما حضرنى من الكلام فقلت :

« لقد اعتاد الناس عيشة الأقفاس منذ الحداثة فإذا
ما وجدوا نفوسهم فجأةً في الهواء الطلق لا يجرأون على تحريك
أجنحتهم ، ويتخوفون الاصطدام بالصخور إذا هم حلّقوا في
الفضاء الواسع » !

فقلت « هو ذلك ، وهو عين الصواب وليس نقيضه بالممكن .
لا ريب أننا نودُّ أحياناً أن نكون كالأطيّار أحراراً نتنقّل على
أشجار الغابات ونلتقي فوق الأغصان ونغرّد سويّاً ثم نفرق
دون أن يعرف أحدنا الآخر . ولكن اذكر يا صديقي أن بين
الأطيّار غرباناً يؤثر تجنّبها . ولعلّ الحياة كالشعر: فكما يحسن
الشاعر سبك المعاني الجميلة والحقائق الخالدة في أوزان معيّنة ،

كذلك على الناس صيانة حريتهم الفكرية والموجدانية رغم قيود المجتمع ودون الايذاء بها أو التطلول عليها .

فأجبتُ مستشهداً بقول الشاعر بلاتن « أي شيء أثبت نفسه تحالداً في كل مكان؟ ذاك هو الفكر الحرّ رغم قيود الألفاظ »^١.

فايتسمتُ ابتسامة رقيقة وقالت : « نعم . ولكن لي من ألمي ووحدي ما يخول لي ما يُنكر على سواي . وكم أشفق على الفتيات والشبان الذين لا يربطون فيما بينهم برابطة الصداقة والائتلاف الاّ ويفكرون همّ أو يفكّر لهم ذووهم ، بدنو الحب أو ما يسمونه حباً . الفتيات يجهلن الجمال المختفي في نفوسهن وقد يكفي لإظهاره حديث جدّي مع صديق نبيل . والشبان يتعشقون فضائل الفروسية ويمرنون نفوسهم على التحامد والمكارم إذا هم شعروا بمراقبة امرأة تحوم حول جهودهم ونتائجها سرّية كانت أم علنية . ولكن للأسف ذلك لا يكون . لأن الحب لا يلبث أن يقتحم الميدان . الحب أو ما يسمونه حباً :

“Denn was an allen Orten (١)
Als ewig sich erweist ?
Das ist in gebundenen Worten
Ein ungebundenen Geist. ”
Platen

أي ضربات القلب المتسارعة المتباطئة ، وعواصف اليأس والرجاء ، والتلذذ بلوجه المحبوب والتصورات المرضية ، وقد يرافق هذه غايات وأطباع جمّة . تهجم كلها متعاونة على إقلاق ذلك البحر الهادئ العميق ، ببحر الصداقة ، وهو صورة صادقة للحب الإنساني الطاهر .

صمتت هنيهة فيها لاحت على وجهها أمارات الألم ، ثم قالت : « حسي اليوم كلاماً قطبيبي لا يسمح لي بالإطالة . والآن أرغب في سماع تلك القطعة الموسيقية لمندلسهين ، النغمة المزدوجة ، وكان صديقي الصغير يعزفها جميلاً فيما مضى . أليس كذلك ؟ »

لم أخرج جواباً لأنها عندما صمتت وطوت ذراعيها على صدرها كالعادة رأيتُ في خنصرها ذلك الخاتم الذي أعطتنيه يوماً ثم رددته إليها . وكان تلامطم أفكاره يحول دون البيان . فجلستُ إلى البيانو وعزفتُ ما شاءت . ولما فرغتُ التفتُ إليها وقلت : « حبذا لو أنيل الإنسان قدرة الإفصاح بالنغمات الموسيقية من غير ألفاظ ! »

فقلت : « ذلك واقع لا يحتاج إلى التمني . ولقد وعيت كل ما تهمس به هذه الألحان . غير اني لا أستطيع استماع غيرها هذه المرة لأن ضعفي يتزايد يوماً فيوماً . على الواحد منا أن يقبل

بالآخر كما هو على علاقته ، ولناسكة مسكينة عليّة مثلي أن
تتوقع بعض الحلم من صديق مثلك . سنجتمع مساء غدٍ في
الساعة نفسها . أليس كذلك ؟

لمستُ يدها وهممتُ بتقييلها . ولكنها أوقفت حركة يدي
وضغطت عليها قائلة : « هذا خير . إلى الملتقى ! »

الذكرى الخامسة

يتعذر عليّ التعبير عن أفكاري وعواطفي بعد عودتي الى البيت . هناك « أفكار بلا ألفاظ » يعزفها الانسان لنفسه في الساعات الخطيرة . لم أشعر بفرح ولا بحزن بل بدهشة فائقة . وصار مثل الهواجس والتصوّرات المخترقة ضميري كمثل النيازك الهابطة من الجوّ على الارض ما أدركت غايتها إلا بعد الانطفاء والاستحالة الى حجارة سوداء . وكما نقول لأنفسنا في الحلم أحياناً « أنت تحلم » كذلك قلت لنفسي « أنت يقظان . وهذه هي » . ثم حاولتُ استجماع خواطري ولمّ شعث فكري بقولي « انها لفتاة لطيفة ذكية الجنان وقادة الذكاء » . وأخذتني منها شفقة وطفقتُ أحصي ساعات هنيئة سأقضيها وإياها في هذه العطلة .

(١) في هذه الاستعارة تلميح الى مجموعة قطع موسيقية لمندلسهين المذكور في الفصل السابق واسمها « أغان بلا كلمات » Worte Lieder ohne . قطع غاية في العذوبة الموسيقية الكثيرة السامية . منها القطعة التي قال بطل الرواية في آخر « الذكرى » الماضية انه عزفها (المعربة)

لكن لا ، لا . لم تكن هذه سوى سوانح عبرت لباب خاطري ،
وذلك الباب ان هذه الفتاة هي منتهى ما بحثت عنه ، وفكرت
فيه ، ورجوته وآمنت به الى الآن . هذه نفس بشرية عذبة
كصباح الربيع ، عطرة كشذا البنفسج ، لامعة كلوا حظ
الكواكب . لقد تبيننت منذ النظرة الأولى قيمتها المعنوية وكل
ما أودعت من بهاء وسناء ، ورحب كل منا برفيقه لأن
الروحين تعارفا . خيل الي ان « ملكي الحارس » مضى وتلاشى ،
وحاولت ان أناديه فلم تجبني نفسي إلا بما دلتني على ان في العالم
مكاناً واحداً أجده فيه .

وبدأ لنا عيش رغيد ؛ اذ كنا نجتمع كل مساء فحسبنا بمثابة
صداقتنا ورسوخها وأضحى ضمير الجمع « انتم » طفيفاً يبيننا
فعمدنا بالمخاطب المفرد « أنت » نستعمله كأننا لم نفترق منذ
الطفولة أصلاً . لم تصف عاطفة الاتهادى خيالها في نفسي ولم
ابسط فكرة الا أشارت مصادقة كمن يقول « هذا فكري ايضاً » .
كنت سمعت اعظم اساتذة الموسيقى في عصرنا يرتجل وشقيقته
ألحاناً على البيانو فأذهلني ان يتألف فكر شخصين اثنين ويتوحد
شعورهما فيوضحان الهامها الموسيقي في آن واحد على أتم انسجام
لا تخونها شاردة ولا تشد في ابداعها واردة . أما الآن فقد
اتسع فكري فأدركت . اتسع فكري فعلت ان روحي لم تكن
فارغة مدقعة قاحلة ، وانما توهمتها كذلك لاحتجاب الشمس عنها
وهي كفيلة باخراج البراعم والازهار الى الوجود والحياة .

ورغم ذلك كان الربيع حزيناً وخيمت منه فوق نفسينا أوشحة
رمادية لأن شهر مايو ورونتقه لم ينسنا أن الورود سريعة العطب
وان كل مساء ينزع من زهرة اجتماعنا ورقة . سبقتني هي إلى
الشعور بذلك وذكرته يوماً دون أن تبدي أسفاً أو ألماً .
فانقلبت أحاديثنا جدية هادئة ينيلها كل مساء ير رصانة
وجلالاً .

قمت أودعها مرةً فقالت : « ظننت الموت قريباً عندما
أعطيتك الخاتم ، ولم أتوقع أن أعيش هذه السنوات . ولكني
عشتها وتمتعت بالجمال كثيراً . كذلك تأملت شديداً . انما المراء
ينسى هذا في السعادة . والآن وقد قربت ساعة الفراق فكل
دقيقة توازي كنوزاً . مساء الخير . لا تبطئ غداً » .

دخلت عليها يوماً وعندها مصور إيطالي . كان حديثها
بالإيطالية ، ومع ان الرجل كان أقرب إلى العادل منه إلى الفنان
كانت لهجتها لطيفة ودیعة يخالطها شيء من الاحترام فتجلى لدي
عندئذ شرفها الحقيقي أي شرف النفس لا شرف المولد . وبعد
ذهاب المصور قالت : « أريد أن أريك صورة أصلها في قصر
اللوثر في باريس . قرأت وصفها فشئت أن تنقل لي » ثم أرنتني
الصورة وانتظرت حكلي . وكانت تلك صورة كهل في الزي
الألماني القديم ، تلوح على محياه سياء التفكير والامثال لقوة عُلّيا
وقد بدا في هيئته وأوضاع جسمه معنى الحياة العميق فلم أرّتب

قط في أنه عاش يوماً ولم تبدعه بخيلة مصور . كان اللون البني القاتم متغلّباً في الصورة ، على أن الجزء الخلفي استحضر مشهداً طبعياً نيراً وظهرت في الأفق أشعة الفجر الآتي . لم يذهلني من تلك الصورة شيء انما أوحى إليّ عاطفة هادئة استطعت معها التحديق في الرسم طويلاً . فقلت : « لا صدق يفوق صدق الهيئة البشرية . وإن روفائيل نفسه ليعجز عن إبداع صورة صادقة كهذه ان لم يعيش صاحبها يوماً » .

أجابت : « صدقت . أما الغرض من هذا الرسم فهاكه : قرأت وصفه فعلمت أن اسم راسمه مجهول كما جهل اسم الأصل الذي نقل عنه ، لعله من فلاسفة القرون الوسطى . فرغبت فيه ليطمئني به معرض الصور في غرقي . ولما كان مؤلف « اللاهوت الألماني » مجهولاً وليس لدينا منه صورة رأيتُ أن صورةً وضعت لشخص مجهول بريشة مصور مجهول يصح أن تنوب عن مؤلف مجهول . فإن وافقتَ علقتها بين ألواحي ودعوتها « اللاهوت الألماني » .

قلت : « فكرة غاية في الحسن . ولكن ربما مثلت الصورة شخصاً أقوى من دكتور فرنكفورت وأعبس وجهاً » .

قالت : « ربما كان ذلك . ولكنني أنا الفتاة المتألّمة السائرة إلى الموت استقيت من هذا الكتاب قوة وتعزية ، ولؤلؤه عليّ فضل كبير لأنه أعلن لي جوهر المسيحية في بساطته العجيبة .

شمتني ازاءه حرة في أن أومن أو أن أجدد لأنه لم يرغمني على أحد هذين ، وقبض عليّ بشدة فخليل إليّ اني ادركت معنى الوحي للمرة الأولى . وأنت تعلم انه مما يحول دون ولوج باب المسيحية الحق ان التعاليم تبسط أمامنا كوحى علينا أن نؤمن به قبل ان يهبط الوحي على نفوسنا . وطالما قلقت لذلك : لست أعني أني شككت في حقيقة الألوهية وفي الألوهية عقيدتنا . غير اني لم أكن لأكتفي بإيمان خلعه عليّ الآخرون ، وحسبت أن ما تعلمته وتقبلته طفلة على غير فهم واختيار لا يستطيع أن يكون خاصتي ولي . الإيمان لا يعار واليقين لا يستعار ولا يجدي التمويه نفعاً . ولا بد من اقتناع شخصي نستند اليه وتنعزى به إذ لا أحد يحيا ويموت عن أخيه .

قلت : « لا ريب أن كثيراً من المنازعات العنيفة والمناقشات الحادة ترجع إلى أن تعاليم المسيح عوضاً عن أن تكتسب قلوبنا شيئاً فشيئاً بلا إرغام كما تملك قلوب الرسل والمسيحيين الأولين فإننا نجابهها منذ حدثتنا كنصوص كنيسة قوية لا تقبل تردداً ولا ترضى جدالاً وتضطرننا إلى الامتثال لأوامرها امثالاً مطلقاً تسميه إيماناً . فلا بد من تولد الارتباب عاجلاً أو آجلاً في كل نفس تميل إلى التسائل وتجلّ الحقيقة . وعندما نصل إلى تلك الخطوة من السبيل فيتيسر لنا تحرير ايماننا المستعار المزعوم ، تنتصب في وجهنا أشباح الشك والإلحاد والكفر وتوقف فينا نمو الحياة الجديدة . »

فقاطعتني قائلة : « قرأت حديثاً في كتابٍ انجليزي أن الحقيقة تتجلى بالوحي وليس الوحي يتجلى بالحقيقة . وأناي لأشعر بذلك تمام الشعور لدى قراءة « اللاهوت الألماني » . قرأته فشعرت بقوة حقيقته القاهرة وأرغمت على الاستسلام . أوحيتُ إليَّ الحقيقة . بل أوحيت أنا الى نفسي ؛ وفهمتُ للمرة الأولى معنى كلمة ايمان . أصبحت الحقيقة ملكي بعد أن أطالت التملص مني لأن أقوال المعلم المجهول اخترقت كياني كتشعع الضياء وأنارت خفاياي جاعلة حيرتي اقتناعاً ، وظنوني المهمة إيضاحاتٍ جليلة . فصممتُ على قراءة الأناجيل كما لو كانت هي الأخرى مكتوبة بقلم المعلم المجهول ، وأبعدتُ عني ما استطعت كونها أوحيت من الروح القدس بأعجوبة إلى الرسل ، وأنها صودق عليها من مجامع الأساقفة والأخبار فاحتضنتها الكنيسة باعتبار أنها الآية الفريدة العليا للدين المنقذ الوحيد . عندئذٍ بدأت أكتنه مع معنى الإيمان المسيحي معنى الوحي المسيحي » .

فقلت : « من المدهشات أن اللاهوتين لم يفلحوا بعد في حمل البشر على جحود كل عقيدة كائنة ما كانت . ولكنهم فالحون يوماً ان لم يحتج المؤمنون بعزمٍ قائلين « لكم أن تبلفوا في شروكم وأحكامكم هذا الحد ولا تتجاوزوه » . كل دين يحتاج إلى الدعاة ، ولكن لم يقم الى الآن دين واحد في العالم لم يزيفه

الكهنة، سواء أكانوا براهمة أو لاما^١ أو كتبة وفريسين. أولئك يتخاصمون موردين شواهدهم وحججهم بلغة لا يفهمها من أبناء ملتتهم عشر واحد من عشرة أعشار. وغرضاً عن أن يستوحوا الإنجيل مرشدين الآخرين إلى استيحائه ترينهم يحادلون لإثبات صحة الإنجيل وعصمته لا من حيث هو الإنجيل إنما لأنه دونه قوم ملهمون. وهل يكون ذلك سوى حيلة من حيل التردد والقصور؟ بأي حجة يثبتون إلهام أولئك الأفراد الى تلك الدرجة العجيبة ان لم ينسبوا إلى أنفسهم إلهاماً أعجب وأدهش؟ لا شك أنهم فرضوا هذا الاعتراض لذلك قصروا موهبة الإلهام على أكتية من آباء الكنيسة المتألفة منهم هيئة الجامع. غير أن هذا التحديد لا يأتي بالجواب المطلوب. اذ كيف تتأكد انه بين خمسين حبراً وأسقفاً ٢٦ كانوا ملهمين و ٢٤ لم يصلهم من الإلهام شيء؟ يحزم المتطرفون اليائسون أنه يكفي أن يلمس الملم يد شخص ما لينتقل اليه الوحي والعصمة من الغلط، ويوقنون أن العصمة والوحي إنما حفظاً في رأس الكنيسة (أو في رؤوسها) إلى أيامنا بهذه الوسيلة. ويعتقدون أن عصمة أولئك الغرباء الذين لانعرف منهم شيئاً تقضي على كل اقتناع صميم فينا بالبطلان، وعلى كل استسلام مخلص بالفساد، وتنكر كل بحث من أبحاثنا ان لم يتفق مع بياناتها وأحكامها. ورغم كل ذلك يبقى السؤال القديم في انتظار الجواب: كيف يدري فلان أن فلاناً ملهم لو

(١) «لاما» هو اسم كهنة البوذيين.

لم يكن له مثل ذلك الإلهام على الأقل ، هذا ان لم يحو إلهاما
أوفى وأشمل ؟ ألا يتحتم علينا حياز الوحي في أرواحنا
لنكتشف آثاره عند الآخرين ؟ » .

أطرقت لحة ثم قالت « يصعب الجواب . وطالما فكرت في
كيفية استجلاء معاني الحب والتثبت من حقيقتها . كيف ندرى
أن شخصا يحب أو لا يحب ؟ ما وجدت إشارة واحدة من
اشارات الحب إلا كانت عرضة للتزوير والتقليد . فامتدت أخيراً
الى أن المحب وحده يميز بين الصادق والكاذب من تلك العلامات
وأنه إنما يثق من حب القلب الآخر لأنه واثق من حب قلبه .
ولما كانت موهبة الحب شبيهة بموهبة الروح القدس (الوحي)
كان الملهمون وحدهم ان هم سمعوا الرياح العاصفات حسبوها
أصواتاً من السماء وان أبصروا زهرات القرنفل زعموها ألسنة
نارية . والآخرون يخافون ، أو يغضبون ، أو يستخرون قائلين
« كلام عتيق ! أما نحن فنفسنا ملأى بخمرة جديدة » . بيد اني
أعود إلى ما أسلفت وهو أن كتاب « اللاهوت الألماني » هدايتي
إلى إيمانٍ استخرجته من حاجات نفسي فوجدت قوتي العظمى
في ما يراه غيري خطأً وعيباً ، وهو أن الاستاذ لا يبسط رأيه
كهانون منظّم بل ينثر أقواله كالزراع أملاً أن تقع بعض البذور
على أرض صالحة فتتضاعف الغلة ألوفاً . كذلك أستاذنا الالهي
(المسيح) لم يحاول إثبات تعاليمه بالبرهان ، لأن من حوى

الحقيقة الكلية استخف بالمظاهر وأعرض عن جميع صنوف
المباهاة والتعنت .

هنا ذكرت شواهد أسبينوزا وأدلته في « أخلاقياته » وطالما
فكرت في أن ذلك اللودعي ما أكثر من شد خيوط شبكته
الفلسفية إلا لشعوره بضعف مذهبه ووهنه . فأجبت محدثي
« نعم . غير اني على ما أوحاه اليّ » اللاهوت الألماني « من
الخواطر المفيدة لا يسعني إلا الإقرار بأنني لم أشاطرك كل إعجابك
بهذا الكتاب . ينقصه في نظري العاطفة الانسانية والطلاوة
الشعرية ، لا سيما وأنه خلا من حرارة القلب وجحد الواقع ولم
يحترمه . روحانية القرن الرابع عشر لا تصلح عندي لأن تكون
أكثر من درس نظري يتحتّم أن تعقبه العودة إلى الحياة العملية
بعزم وجراحة ، الى تلك الحياة الواقعية التي عرفها لوثر وعالج
منها المصاعب . لا غنى للانسان عن إدراك معنى العدم ، ولو
مرة في عمره ، ليعلم أنه ليس بشيء وأن أصوله بداية ونهاية ثابتة
عريقة في أصل يتعالى عن المحسوس ويحلّ عن الحصر . وهذا
الاتجاه نحو الله إن لم يقدنا في الحياة إلى كعبة آمالنا فهو يبقى في
نفوسنا وجداً مقيماً إلى مرجعنا ومستقرنا الأبدي . ولكن
البون شاسع بين هذا النوع من العبادة وبين انكار الخليقة كما
يفعل الروحانيون ، ولئن نشأ الانسان من اللاشيء أي من الله
وبه وحده ، فهو يعجز عن العودة إلى اللاشيء بقوته الذاتية .

والتلاشي الروحي الذي يكثر «تاولر» الألماني من ذكره لايفضل « النرفانا » أو الفناء النوراني الذي يقول به البوذيون . تاولر يصرح بأنه لو استطاع حباً بالله وإظهاراً لخضوعه له أن يفنى فناءً لما تردد في أن يسجد أمامه تعالى ويتلاشى في عمق أعماق الهاوية . إلا أن الخالق لم يشأ فناء هذه الخليقة التي أوجدها . وقد قال القديس أغسطينوس أنه « في اقتدار الإله أن يتجسد إنساناً وليس في مقدور الانسان أن يستحيل إلى إله » . فلا بأس بالروحانية درساً يفيد ونظرية تنير ، بها ترهف النفس وتلطف وتزداد تألقاً . إنما ينبغي أن لا تبخر القوى والملكات على نحو ما تفعل النار بالماء الغالية في القدر . ومن أدرك العدم في نفسه عليه رغم ذلك أن يؤمن بأن ذاته الصغيرة إن هي إلا انعكاس الذات الإلهية الكبرى . جاء في « اللاهوت الألماني » :

« ليس كل ما تدفق من منهل الكمال بالجواهر الحق وليس له من جوهر في غير الكمال . ما هو إلا حدث أو بهاء ، أو مظهر محسوس . ليس هو الجوهر ولا جوهر له إلا في التارمبعث النور ، شأن شعاع الشمس وضوء الشمعة .

« ولئن كان ما فاض من الكيان الالهي كلهيب النار إلا أنه لابد أن يكون حقيقة إلهية في ذاته إذ قد يسأل المرء نفسه «وما هي النار بلا لهيب، والشمس بلا نور، والخالق بلا خليفة؟»

وقيل أن الطامع في استجلاء هذه الغوامض وتفهم حكمة الله
اتما رغبته هذه كـرغبة آدم والشيطان .

« حسبنا علماً أننا نعكس الكائن الالهي لنجتهد في صقل
مواهبنا حتى يوم الكمال . يستحيل إخفاء النور الالهي من نفوسنا
تحت المكياج ، فلندعه إذاً يلعب ويشرق ويضيء ما يحيط بنا
ويبعث فيه الحرارة ، لنشعر بأن دماءنا تطهرها نار الحياة . وإذا
يحل فينا معنى قدسيّ رفيع يقوينا على اقتحام معارك العالم ،
وتذكرنا أصغر الواجبات بعلاقتنا بالله ، لا يلبث أن يصبح
الأرضي في تقديرنا سماوياً ، والزمني أبدياً كأن حياتنا بأكملها
حياة فيه تعالى ؛ ليس الله الراحة الدائمة بل هو الحياة الدائمة .
وأنجيليوس سليزيس مخطيء بزعمه أن الله لا ارادة له ،
في قوله :

« نحن نصلي أيها الرب الهنا لتكون مشيئتك المقدسة !
ولكن اسمع وعز : أيها المبتهل ، لا ارادة الله لأنه الراحة
والسكون » .

كانت الفتاة تصغي إلى بهدوء وانتباه . فتأملت دقيقة ثم
قلت « القوة والصحة ضروريتان لمن كان له مثل اعتقادك ،
وفي الأرض نفوس متعبة تعاني رهقاً شديداً وتصبو إلى الراحة
والطمأنينة لأن وحدتها تثقل عليها . تودّ أن يضمها السبات
والسكينة إلى أحضانها فلا يخسر العالم بذهابها ولا تأسف هي

لفراقه . تلك النفوس تتعزى في هذه الدنيا بالاتحاد بالله والاستغراق في ذاته الصمدانية ، وهي تفعل ذلك بداهة إذ لا رباط يربطها بالعالم وليس لها من الاطماع ما يزعج ويقلق . فتتوق إلى الراحة وتراها - كما يراها الشاعر الالماني - الخير الأسمى وترى الله راحة والراحة فيه . ثم اني أجذك ظالماً في نقد «اللاهوت الالماني» لأنه إن قال ببطلان الحياة الارضية فهو لا ينادي بحذفها . ويقول في مكان آخر ان السكينة والراحة لا يلتقيهما الانسان قبل الموت ، إلا أنه بارتقائه الروحي يصير شبيهاً بيد الله ، لا يأتي أمراً بإرادته الذاتية بل بإرادة الله ، كأنه عزٌ وعلا اختاره ليسكن فيه . ويقيني أن من امتلأ بروح الله شعر بتلك الحضرة الالهية فيه ، غير أنه يكتم هذا السر الجليل في نفسه كما يكتم العاشق عن الملائ أسرار غرامه . أما أنا فطالما شعرت بأني كشجرة الحور المنتصبه أمام نافذتي . هي ساكنة في المساء لانهتز وريقة من وريقاتها ولا يتحرك من أغصانها غصن ، وعندما يمر بها نسيم الصباح فتترنح أوراقها، يظل الجذع راسخاً هادئاً . وإذا يعود الحريف وتتناثر أوراق كانت بالأمس مفعمة حياة فيعثرها الذبول يبقى ذلك الجذع في مكانه بلا حراك مترقباً مجيء ربيع آخر ... »

لقد ألقت الفتاة هذه الحياة الروحية فحالة اخراجها منها لثم . أليس اني أنا أيضاً لم أفلح في التملص من هذا العالم السحري إلا بعد جهاد عنيف ؟ ومن يحزم بأنه ليس هو النصيب الأفضل

الذي لا يفنى وأننا لسنا بضالين نحن الذين نعدو ونكد لاقتناص
منافع تحطّ منا الهمة وتذبل القلب وتقرض الروح ؟

وهكذا كان كل اجتماع يثير مذاكرة جديدة تكشف لي
وجهاً مجهولاً من نفس لا تسبر ولا تحد . لم يكن حديثها سوى
تفكر واحساس ينسجان كلاماً مسموعاً بدلاً من أن يتعاقبا في
وحدة الوجدان . ولم تكن آراؤها آراء بل أجزاء حية منها
عاشت معها أعواماً لأنها كانت توردها بلا إجهاد ، كبنية ملأت
حجرها أزهاراً وقامت تلقيها بها على العشب الأخضر . كان
يسوّني أن لا أفتح كتاب روحي تقرأ فيه ملياً كما أقرأ في كتاب
روحها . ما أندر المحتفظ منا بفطرته الأصلية في وسط أكاذيب
إتفاقية نقبلها مكرهين ، سمها ما شئت عادات ، أو أدباً ، أو
تكتماً ، أو مراعاة ، أو حكمة اجتماعية ! وما أقل من يفلح
في التفلت منها بين المخلصين المجاهدين ! بل ما أندر من يذكر أن
حركاته انما هي وجه عارية ، ونقاب سخرية أسدل على ملامح
الحياة ! نحن نكذب في كل شيء حتى وفي الحب ، حتى وفي
الحب الذي نسكته قهراً ، وننكر عليه التهنيد والتلوي والارتعاد ،
ونخرجه الى التواري عوضاً عن التجلي في الاشارات وتقديم
النفس ضحية في النظرات ، نكذب في الحب الذي نسكته على
أن يهمس في مهمة الشعراء . كم من مرة كدت أقول لها « أنت
لا تعرفيني يا بنية » ولكنني كنت أشعر بأن كلامي لا تصدق
الصدق كله . فعوّلت على أن أترك بين يديها مجموعة أشعار

أرنولد التي وردت إليّ حديثاً ، وسألتها أن تقرأ قصيدة الحياة الدفينة : وكان مغزاها الاعتراف بحبي . ثم جثوت قرب سريرها وقلت « مساء الخير » . فردّت بقولها « مساء الخير » ووضعت يدها على رأسي . فجرت في أعصابي تلك الهزة المستحبة وهباً مارقد في جوانحي من تذكارات الطفولة ، ولم أعد أستطيع حراكاً بل ظلت أنظر في عينيك العينين اللتين لا قرار لغورهما حتى أفاض سلام روحها على روحي سلاماً . ثم نهضت ومضيت صامتاً ، ورأيت تلك الليلة في أحلامي حورية طويلة تتلاطم الرياح حولها دون أن تهتز عليها ورقة أو يتحرك منها غصن .

الحياة الدفينة

النور يعلو ويغمر حروبنا الكلامية : أنظري ، ها أن عيني تراودها الدموع وأشعر بكآبة مبهمة تلتف حولي وتمدد . أجل ، نحن نعلم أننا نستطيع أن نرح ونعلم ، نعلم أننا نستطيع أن نبسم ! ولكن في مهجتي حرقه لا تلطفها كلمتك الرقيقة ، ولا تسكنها منك البسمات .

أعطيني يدك وأصمتي قليلاً ، ولتستقر على عيني نظرة عينيك الصافيتين لأقرأ فيها ، يا محبوبتي ، آيات روحك !

أواه ! هل يقصر الغرام دون فتح فؤادك واستماع صوته ؟

هل يحظر على المتيسمين إظهار ما تكن قلوبهم ؟

كنت أعرف الناس يظنون بأفكارهم لئلا يتلقاها
الآخرون ببهودٍ وجفاء ، كنت أعلم انهم يحبون ويتحركون
مخدوعين خادعين ، متتكربين متسترين ، غرباء عن البشر ،
غرباء عن ذواتهم ! انما القلب بعينه ينبض في كل صدر
بشري !

ولكن نحن ، يا محبوبتي ، أيسكت ذلك النهي' الوهمي
قلوبنا ؟ وأصواتنا ؟ ، أيجب أن نخرس نحن أيضاً ؟
آه ! ما أسعدنا إذا حررنا قلوبنا ، ولو لحظة ، وحلنا
قيود الشفاء لأن السر الذي أطبقها وختم عليها تقدر في
أعماقنا !

القدر الذي سبق فعلم كيف يكون الرجل طفلاً وكيف
يكون زهوقاً ، وكيف تتقاذفه المطامع فيخوض ميادين الشقاق
والنزاع حتى لتكاد تتحوّر شخصيته ، فلا يتمكن من وقاية
النفس الطاهرة من تلاعب الأهواء وان أرغمها على الخضوع
لناموس الكيان؛

ذلك القدر هو الذي يأمر نهر الحياة في صدرنا استطراد
السير الى الامام .

فننسى حركة ذلك النهر الدفين وان لازمناه وهو يجتاز عرض
البهار وكنا مثله مسوقين على الدوام .

ولكن كم من مرة في ازدحام السبل ،
وكم من مرة في جلبة المصارعة وضوضاء التقاتل
يتصاعد فينا الشوق فننتبه لحياتنا الدفينة :
ويتمسك لدينا احتياج لصرف نار قوانا التي لا تعرف
السكون ،
ويضئنا توق الى البحث عن أسرار القلب النابض بعنفٍ في
أعمقنا لنعرف من أين تأتي أفكارنا والى أين تقصد !
كثيرٌ هم الذين يحفرون في قلوبهم وينبشون
لكن ، وا أسفاه ! قلٌ من يشغل القلب وقلٌ من يدفعه
ويكفيه !
عالجنا اللحم من شؤون الحياة فأظهرنا في كل فن حذفاً
ومهارة ؛
على أننا لم نكن كما نحن في ذاتنا القصوى ولم نسر في سبيلنا
الواحدة سوية ، ولم نفصح عن عاطفة من العواطف المتضاربة
في صدرنا ،
وباطلا ، حاولت ان تتكلم وتتحرك خلال تلك العواطف
ذاتنا الخفية الصادقة !

فكانت أقوالنا وأفعالنا بليغة وحسنة ، ولكن غير
صحيحة !

وإذ يثقل الألم علينا وطأة الجهاد نسأل صفائر الحياة قدرتها
المدهشة للوصول الى النسيان والسلوان فتبلي طلبنا إذ
نلتجئ اليها !

ولكن رغم كل مغالبة وكل قهر تنهض ، الوقت بعد الوقت ،
من عمق أعماق الكيان كما من أرض قصية مجهولة ، تنهض أصوات
ملتبسة بأثثة ، وتنتشر أصداء طائفة سابحة فتملأ أيامنا
كآبة وغما

إنما - وهذا نادر الحدوث - عندما نضم في يدنا يداً محبوبة
ونقرأ بعينين يعذبها دخان الساعات ولهيبها ، نقرأ يجلاء في عيني
شخص آخر ، وتداعب سمعنا الذي أصمّه ضجيج العالم نبرات
صوت عزيز -

إذ ذاك تنبسط الأنوار في أرجاء جناننا وتضرب
من جديد نبضات العاطفة الدفينة وتستقر لواحظنا في
محاجرنا ،

وينفتح كتاب القلب فنعني ما نقول ، ونقف على ما نود
معرفة ، ويرقب الواحد منا فيض حياته ويسمع همسها الشيق ،
ويلبس حركتها المتتابعة ، فيتمتع بالحقول اللامعة ، ويتمتع

بالشمس والنسيم. وأخيراً ، أخيراً يداهم ذلك الفيض الحار هدوء
حُبِّيس فيه الخيال المراوغ المدعو بالراحة : نسمة باردة تهب على
وجهه ، وسكون غير مرغوب فيه يهجع في صدره ؛

إذ ذاك تتخيله عارفاً آكاماً أشرقت عليها حياته وبحراً تسير
إليه أعمار الأنهار !

الذكرى السادسة

في صباح الغد طُرق بابي باكراً ودخل عليّ طبيب البلدة الذي كان بصلاحه وعنايته صديق كل نفس فيها . شهد تعاقب جيلين اثنين من أهلها والأطفال الذين دخلوا العالم على يده وصلوا إلى دور الأبوة والأمومة وما زال يعاملهم جميعاً معاملة الأب لأبنائه . لم يتزوج مع أنه كان حتى في شيخوخته قوياً جميلاً . رأيته مذ عرفته كما يقف الآن أمامي وعيناه الزرقاوان الرائقتان يلمعان تحت حاجبيه وشعره الأبيض الكثيف يتلوى جعدياً ، وهو يلبس الجرابات البيضاء وهذا الحذاء ذا العرى الفضية ، وعلى ذراعه هذا الرداء البني الذي قضى عمره جديداً . وعصاه هذه الذهبية الرأس كان يحملها بعينها أيام طفولتي إذ يقف إلى جانب سريري ليحس نبضي ويصف لي الدواء . ولقد تعددت الأمراض في حداثتي إلا أن إيماني بقدرة هذا الرجل كان كفيلاً بالشفاء ، لأنني لم أشك لحظة في كفاءته وسطوته على جميع العلل . فكان قول والدتي بوجوب استدعاء الطبيب يوازي عندي قولها بوجوب حضور الخياط ليفصل لي قميصاً

بذلة . وما كان عليّ إلاّ أن أتناول أول جرعة من الدواء
لأشعر ببدء الشفاء والتحسن .

دخل الغرفة قائلاً : « كيف حالك يا صديقي الصغير ؟
أرى على وجهك دلائل التعب فلا تكثر من الدرس . ليس لديّ
وقت طويل للحديث . انما جئتُ أقول لك أن تكفّ عن
زيارة الكونتس ماري . لقد صرفتُ الليل قرب سريرها وأنتَ
علة اضطرابها فامتنع عن زيارتها إذا كانت حقيقة عزيزة عليك .
ستذهب هي إلى البرية قريباً وخير لك أن تسافر أنت أيضاً
وتغيب مدة . والآن عم صباحاً وكن أبداً ولداً صالحاً كما هو
عهدي بك » .

قال هذه الكلمات وتناول يدي ناظراً في عينيّ بعطفٍ
مستفهماً كمن يود سلب الوعد سلباً . ثم غادرني ليعود
الأطفال المرضى .

أدهشني أن يهتدي غريب إلى أسرار نفسي قبل أن أكون
على علمٍ تامٍ بها . غير اني لم أفكر في ذلك إلا عندما بلغ الطبيب
أطراف الشارع ، فجاش قلبي كالماء طال مكوته على النار فغلي
فجأة وفار وعلا حتى ضاق عليه الاناء فتدفق .

كيف لا أرى صديقي بعد الآن وأنا لا أحيّا إلاّ ساعة

أكون قريبها ؟ سأقابلها هادئاً لا أتحرك ، وصامتاً لا أتكلم ، بل أكتفي بالوقوف عند النافذة وأنظر إليها وهي نائمة تحلم . كيف لا أراها ؟ وكيف يمكنني أن لا أراها ؟ بل كيف لا أودعها ؟ هي لا تعلم ، ولا تستطيع أن تعلم ، اني أحبها . وأنا لا أرجو شيئاً ولا طمع لي في شيءٍ قلبي ينبض بانتظام في حضرتها . انما أحتاج إلى الشعور بوجودها ، أحتاج الى استنشاق روحها ، وعليّ ان أزورها لأنها تنتظرني . ترى أجمعنا القدر بلا مأرب ؟ أليست أنا تعزيتها ، وأليس انها موضع راحتي ؟ أتدني الحياة بين روحين شأنها بذرات الرمل في الصحراء ثم تبعث بريح سموم فتتلاعب بضعفها وتذرّها في الهواء غباراً ؟ أليس أن نفوساً سعدت بالتقارب والتفاهم تحافظ على سعادتها ، ولا تفصل بينها قوة ولو أسرفت في الدفاع والنضال وقضت في سبيل ذلك الاتصال ؟ وقد تحتقرني الفتاة إن أنا جازفت بحبها وأجفلت لأول إشارةٍ اجفال تلك الشجرة عند دويّ الرعد في الفضاء .

توقفتُ بغتةً وإذا بكلمة « حبها » تتراجع كالأصداء في جميع أنحاء قلبي خيفةً مروعة . « حبها » ؟ وماذا فعلت لأستحقه ؟ هي لا تعرفني إلا قليلاً ، وإذا استطاعت أن تحبني فعليّ مصارحتها بأني لستُ أهلاً لتلك النعمة . وأخذتُ

أفكاري وآمالي تتصاعد في جوّ نفسي ثم تهبط يائسةً كأطيّار
تحاول التحليق في بعيد السماء وهي تجهل أن الأسلاك ضربت
حولها سياجاً محكماً. ان لم تكن هذه السعادة سعادي، فلماذا تحلّ على
مقربةٍ مني؟ ألا يصنع الله العجائب؟ ألا يصنعها كل يوم وكل
ساعة؟ ألم يصنع إلى صلواتي مراراً أرسلتها نحو علاء فعاتت إليّ
تحمل مساعدةً للمكوب وتعزيةً للمضي؟ أنا وهي لا ننشد خيراً
دنيوياً، إلا أن نفسينا المتفاهمتين تودّ أن عبور هذه الحياة يداً
بيدٍ ووجهاً ازاء وجهه، وأن أكون أنا عضدها في آلامها وأن
تكون هي تعزيقي أو حملي الغالي، وهكذا إلى نهاية العمر.
ولماذا لا يمد الله بعمرها وينعم عليها من أيامها بربيع بعد أو ان
الربيع ويبرئ سقامها؟ آه! يا للصور العذبة تمرّ أمام عيني! هي
تملك قصر والدتها في «التيرول». هناك نمكث فوق الآكام
الخضراء في هواء الجبال النقي بين أصحاب لم تضعفهم المدنية،
بعيداً عن هموم العالم وجهوده حيث لا حاسد ولا عدول. هناك
ندرك بسلام غروب الحياة فتذوب أيامنا الأخيرة رويداً رويداً
كاحمرار الشفق لدى هجوم الظلام...

ترأت لي البحيرة القائمة بأمواجها الهادئة ترجع صورة
الجبال البعيدة يجلل الثلج أعاليها. وسمعت رنين أجراس
القطيع وأغاني الرعاة، وخلت الشيوخ والشبان متجمعين
عند المساء في مدخل القرية، وفوق هؤلاء جميعاً لمحت

خيال الفتاة ساجداً كملك حب وسلام ، ورأيتني دليلاً
لها وصديقاً .

عندئذ صرخت بأعلى صوتي « يا لك من غبي ! يا لك من
غبي ! أخارت قواك وذلّ شمعك ، وبلغ بك الحق والغرور هذا
المبلغ ؟ ألا تيقظ وأنهض ، وأذكر من أنتَ وأذكر فروقاً تحول
بينك وبينها ! هي صالحة لطيفة تسرُّ برؤية نفسها منعكسة على
مرآة نفسٍ أخرى . غير أن ثقّتها هذه الشبيهة بثقة الأطفال ،
وكيفية تصرفها معك ومعاملتها لك ، كلها تم عن خلوّ فؤادها
من عاطفة عميقة تحييكَ . ألم ترَ في ليالي الصيف المنيرة وأنت
تائه وحدك بين أحراج الزان كيف يسكب البدر فضيَّ أشعته
على كلّ غصنٍ وكل ورقة ، ويضيء بركة الأسماء ذات المياه القائمة
فيشرق ممثلاً في كل قطرةٍ وجزء من قطرة ؟ ذاك موقف الفتاة
ازاء ليل هذه الحياة ، ولئن نشرت في فؤادك نوراً ترتسم
خلاله خطوط صورتها المأنوسة فلا ترجُ شعاعاً ، لا ترجُ شعاعاً
حاراً لاذعاً ! لا ترجُ عاطفةً حارةً تشبعك وتحييكَ !

مثلت صورتها أمامي مثول الحياة ليس كذكرى بل كرؤيا ،
فاستوقفتني جمالها . ذلك لم يكن جمال الرونق الزاهي الذي
تفتننا به الفتاة الحسناء لأول نظرةٍ ثم ينقضي ويزول بزوال
الربيع . بل كان جمال الانسجام والالتئام بين أجزاء كيانها ،
وجمال الحركة الصادقة والتعبير الروحي ، ومعنى السكون

المقيم . ان جمال الشكل واللون الذي تمنحه الطبيعة بنات حواء
لا يُرضي إلا إذا أظهرت صاحبته أهلية له بل وتغلباً عليه .
وإلا فهو يغضب ويستخط كأنه رداء ملكي تجرره في المسرح
ممثلة ذات فنٍ خاملٍ سقيم . الجمال الروحي هو الجمال الوحيد
يعدُّ الصورة الترابية الجامدة بالحياة والمعنى ويصير المنفر جذاباً
والقبيح مليحاً .

كلما أمعنت النظر في طيف الحبيبة أدركتُ منها نبل الجمال
وعشق الروح كأن الوحي بذلك الجمال يهبط عليّ بالتدريج .
أواه انها لغبطة ، انها لسعادة تلمس يدي ! وما غاية الزمن من
تعديبي؟ أيريني قمة الهناء ثم يلقي بي غدراً في القفار حيث الرمال
الحرقة والوحدة الموجهة ؟ ما الغاية من اكتشاف كنوزٍ تحويها
أرضنا هذه ؟ أليس دوام الشقاء خيراً من أن يحبّ المرء مرة ثم
يبقى إلى الأبد وحيداً ، ويرجو يوماً ليسحق اليأس قلبه دواماً ،
ويلمح النور طرفه ليصرف حياته في الظلمات كفيفاً ؟ هذا ألمٌ
يفوق الآلام البشرية بمجموعة بنامها .

طال تشتت أفكارني وتتابعها المشوش المختلّ ، الى أن
هدأت عاصفة شعوري وتجمعت خواطري وانتظمت قليلاً
قليلاً . يسمّي الناس هذا الخمود تفكيراً ولكن التفكير في مثل
ذلك محال وما لدينا من قوة سوى الترقب والانتظار . وما هي
نتيجة هذا وذاك ؟ هي تلك التي يشهدها الكيماوي بعد أن

تتخذ العناصر أشكالها فيذهله أن نتائج التحليل تختلف عن مقدماته الاختلاف كله .

كذلك كانت الكلمة التي لفظتها بعد العودة من غيبوبي هي هذه « يجب أن أسافر » ! فجلست إلى مكثتي وكتبت إلى الطبيب اني سأغيب أسبوعين وإني أترك الأمر له . ثم انتحلت عذراً قدمته لأبويّ وغادرت البلدة في ذلك المساء ووجهتي جبال « التيرول » .

الذكرى السابعة

ما أسعده فتي ذاك الذي جال في أنحاء « التيرول » فتسلق
جبالها الشاهقة وهبط أوديتها العميقة برفقة صديق محبوب :
أليس أن حظاً كهذا يبعث فيه نشاطاً ويطيل منه العمر ؟ وما
أشقى ذاك الذي يحجب البراري والقفار والغابات والمدن وحده
لا نديم له سوى أفكاره المؤلمة .

ترى ماذا يهمني من هاتيك الجبال المتجلية بجلها الخضراء ،
ومن هذه الوهاد الغائرة السوداء ، وتلك البحيرات الزرقاء ،
والشلالات المتدفقة تتكسر فيها خطوط الأنوار والظلمات ؟
عوضاً عن أن أنظر إليها ها هي تنظر اليّ وبها ذهول لدلائل
اليأس المرسومة على الوجه البشري المائل أمامها ، وذهولها
يسحق قلبي ويثقل عليّ انفرادي إذ ليس في هذا العالم الواسع
شخص يشاق إليّ ، ويرغب فيّ ، ويؤثّرني على أي أحد غيري .
كنت أرقد كل مساء واستيقظ كل صباح بهذا اللهب المبرح ،
كأنما هو نعمة نفذت في سمعي واحتلت ذاكرتي دون أمل
في الجلاء .

دخلتُ ذات مساء إحدى الفنادق تعب النفس والجسد
وجلست بين الحضور فتوجهت إليّ أنظارهم ورأيت فيها خيال
الشفقة على هذا الغريب التائه في ديارهم . فأمضتني جراح قلبي
ومضيت أسعى تحت جناح الظلام حيث لا عين ترى ولا شفيق
يشفق . وعدت إلى غرفتي في أواخر الليل وانطرحت على
مضجعي الملتهب مهمماً لنفسي بأغنية شوبرت المعروفة « حيث
لست موجوداً هناك السلام والطمأنينة » . ومرت الأيام وحالي
في ازدياد حتى أمسيت لا أحتمل منظر المغبوطين الضاحكين
ومشاهد الطبيعة البديعة الدائمة ، فصرت أنام ساعات النهار
بطولها وأصرف الليالي متجولاً من مكان إلى مكان . إلا أن
عاطفة قوية كانت تستولي عليّ فتحول أفكاري عن مجراها وتردني
إلى مخدعي ، وهي عاطفة الخوف أو احساس الخوف ، سمّه
ما تشاء .

نعم كنت أخاف في تلك الليالي القمراء إذ أتسلق أكتاف
الأطواد في أدغال ليس بمعروف مداها ولا منتهاها بمأمون ؛
فتتوتر أعصابي ويتيقظ بصري ويرهف سمعي فأرى أشباحاً
بعيدة مبهمة ، وأتوجس أصواتاً ذات همس ودوي وطنين تنبعث
من كل صوب ، وتتعثّر قدمي في جذور انبثقت من شقوق
الصخور ، هذا ان لم تزل في عطفة بلّت تراها مياه الشلال ؛
فينكمش في فؤادي القانط وتهزه قشعريرة البرد وليس لديه من
حرارة التذكار ما يدفعه ومن حلو الرجية ما يتعلّل به . إن

من أخذه مرةً وجلُّ الليل لعالم بأنه وجلُّ يتناول النفس والجسد معاً .

لا أشك أن الخوف كان أول عذاب الانسان يوم ظن نفسه منسياً من الله . ثم تشدد وخف اضطرابه بتعاون أبناء الله فيما بينهم واتفاق كلمتهم على التكاتف والتضامن . وهو لا يعرف الوحدة الساحقة واليأس الصميم إلا عند ما يعوزه الحب والمعونة فيخال له أنه إنما انقطع عن شركة الأحياء لأن الله هجره وأغفل وجوده . يسأل الطبيعة وعجائبها فيلقى من سكوتها هولاً لا مؤاسة ، وينقل خطواته على الارض المتينة الصلبة فتترنح تحت وطئه وتتوارى كزبد البحر وموجه . وان رفع بنظره نحو النور ينشره القمر صاعداً وراء احراج الشربين حسب أشعته رؤوس حراب تطعن مهج الصخور ، وخيوطه عقارب ساعة دارت دروتها زمناً ووقفت وقوفاً لا ينتهي .

النجوم تدور مسرعة في أبراجها السحيقة لا تلتفت إلى تعساء الغبراء فلا تعزية في مشهدها بل هو يزيد النفس شعوراً بالوحدة والهجران . وما من سلوى ممكنة في غير عمل الطبيعة المستطرد بدقة يشمل الموجودات بأسرها لا تشويش يزعج ذلك النظام الكامل العظيم .

هاك الشلال ، يا أيها المتأمل ! فان تدفق أمواجه أفال الجلاميد على جانبيه حياة وكساها بطحلبٍ ذي خضرة قائمة ،

وفي ظل الجلاميد تختبئ تلك الزهرة النحيقة المدعوة « لا تنسي ! » . هذه واحدة من ملايين الزهرات المنورات قرب كل ساقية وكل جدول في كل روض من رياض الأرض . وقد نورت في أمكنتهن مراراً عديدة منذ أن نثر الكون على الخليقة ثروة حيويته التي لا نفاذ لها . أحصيت جميع الخطوط في وريقات هذه الزهرة ، وُعدَّت جميع الذرات في كأسها ، وضبطت جميع ألياف جذعها فليس من قوة أرضية مها طغت وبطشت أن تزيد عليها أو تنقص منها فتيلاً . وإذا استعنا بالمجهر (المكروكوب) لتبين عمل الطبيعة واكتشاف خفاياها في أدق أنواع إنتاجها وجدنا في أحشاء البذور الهادئة ، وفي البراعم والازهار والأنسجة والخلايا ، الناموس ذاته متكرراً متجدداً ، ويظل نظام الكون في أصغر الذرات وأنحف الألياف أدياً لا يلمسه تغير ولا يلحق به تبديل . أنى توجهنا لقينا النظام الأوحده ، فالنفس من هذا العالم الصوري عين أحاطت بها المرايا ففقدت ذاتها في تكرار لا حد له ولا نهاية . وفي كل كائن وكل موجود يستقر الأبد الأبدي الذي يختلب ذهنك إزاء هذه الزهرة النحيقة .

وهناك في أعالي الفلك تجد النظام بعينه نافذاً في الاجرام الكبرى : فالأقمار تدور حول السيارات ، والسيارات حول

الشموس ، والشموس حول شمس أخرى وما السديم الحيالي
السحيق إلا عالم عجائب وقدرة وجمال . ولا تفتأ هذه
الكواكب العظيمة تدور في أبراجها لتُظفر الأرض بتوالي
الفصول فتتمكن الزهرة من البروز والنمو ، وتنسج منها الخلايا
وتنتشر الأوراق فترصع هي وأخواتها بساط الحقول . كذلك
ينفذ النظام في الفراشة المتوسدة أحضان الأزهار . فان
يقظتها للوجود وتمتعها بالحياة وكيفية تنفسها ونموها لأعجب
من نسج النبات ودورة الشموس . ونحن البشر نظير كل
كائن إنما يختص بنا النظام الكلي الخالد . فكم من موجودٍ
انتبه من غفلة العدم وتحرك وعاش ثم اختفى غير تاركٍ لمروره
من أثر !

فإذا كان الكل بموجوداته الكبيرة والصغيرة وما يدبرها
من حكمة وقدرة ، إذا كان هذا الكل بأعجوبة حياته وحياة
أعاجيبه صنع كائن أحد فلماذا أنت ترتعد وماذا تخشى ؟ أليس
الأحرى بك أن تحتر ساجداً مدركاً ضعف نفسك وعدمها ثم
أن ترفع عينيك نحوه واثقاً بحبه وعطفه ؟ أليس ان فيك شيئاً
أثمن من نسج الأزهار وأعضاء الحفافيش وأبراج السيارات ؟
إذا كان ذلك ورأيت خيالك في صفحة الوجود محاطاً بتألق
الكائن الدائم وشعرت بمضوره فوقك وتحتك وفي داخلك وإنما
بذلك الحضور الإلهي يصبح الشبح منك إنساناً ، والقلق عندك

راحة ، والانقطاع اشتراكاً ، والانفراد واحديةً كبرى ؛
 إذا كان ذلك وعرفت أنك تناجي إلهك إذ تصرخ في ليل
 الحياة البهيم « أبتي ، فلتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على
 الأرض وكذلك في ! » فكيف لا تنقش عنك إذن غيوم
 الأكدار ويبرز فجر السرور حاملاً معه تعزية ونوراً ؟ ان لك
 من الله يدأ لا تهملك بل تظل تمضدك وتقودك عندما تهتز
 الراسيات وتنطفئ الشمس . حينئذ حلت تكن معه ويكون
 معك وهو قريب اليك على الدوام . له الخليفة بورودها
 وأشواكها ، وله الانسان بأفراحه وأتراحه « ولا يحدث شيء
 إلا بإرادة الله وسماحه » .

يمثل هذه الخواطر كنت أسلي نفسي فأقبلها تارة فرحاً
 وطوراً حزناً . لأنه ان نحن بلغنا لحظة مقر الراحة والسلام
 القائم في غور الروح فيتعذر علينا المكث هناك طويلاً . وكثر
 من ينسى تلك الخطوة بعد الاهتداء اليها ، وينسى حتى السبيل
 الفكري الممتد بين العالم وبينها .

انقضت الأسابيع ولم أتلّق من فتاتي حرفاً . فساورني همٌ
 جديد إذ قلت لنفسي « ربما توقيت وهي تستريح الآن في حضن
 السلام الأبدي » فأقامت هذه الكلمات تحوم حول شفقي وكلما
 بالغتُ في ازدجارها بالغت هي في إثبات معناها .

فعلام الازدجار وقد يكون حلّ المقدور ؟ ألم يقل الطبيب
 انها ضعيفة القلب وأنه يتوقع أن تفارق الحياة من يوم إلى يوم ؟
 فهل أغتفر لنفسي تهاونها إذا غادرت صديقتي الدنيا دون أن
 أودعها وأبوح لها بحبي ولو في الساعة الأخيرة ؟ ألا يتحتم عليّ
 البحث عنها الآن لأستمع منها كلمات الحب والغفران ؟ لماذا
 يتردد الناس في قضاء الشؤون ويؤجلون مخيرين غبطة تتيسر في
 لئال ناسين ان كل دقيقة قد تكون الأخيرة وأن ما فقد من
 الزمن فقد فقد من الأبدية ؟

فكرت في اجتماعي والطبيب قبيل السفر فأدركت أنني لم
 أرحل إلاّ لأثبت له أنني قويّ صلب الإرادة وقد عزّ عليّ
 الاعتراف بضعفي وباحتياجي إلى صديقتي . فأتضح لي الواجب
 في الحال وهو العودة اليها على استعداد لقبول ما تبعث به إلينا
 السماء من فرح وترح ، وذكرت قول الطبيب بقرب ذهابها إلى
 البرية وقولها لي قبلئذٍ أنها اعتادت الاصطياف في قصرها في
 التيرول . أتكون إذن على مقربة مني لا يفصل بيننا سوى سفر
 ساعات قلائل ؟ ما كاد يتضح الفكر حتى عاجلته بالتنفيذ .
 فغادرتُ المكان عند انبثاق الفجر ووجدني الغروب أمام
 قصرها .

وكان المساء هادئاً جميلاً وقد ضرب مجد الغروب فوق قمم
 الجبال رواقاً عسجدياً فسبحت الهضاب في زرقاء وردية ،

وتصاعد من الأودية ضباب رمادي* فجعل يستحيل لامعاً
بلامسة الهواء المنير ، ثم اتجه نحو أعالي الجوّ كبحر ضيآءٍ
متحرك . وتعدّد تلك الألوان والأعيب هاتيك الأنوار كان
يعكس على صفحة البحيرة المضطربة فتبدو فيها ذرى الجبال
مراقصة رؤوس الأشجار وسطح الكنيسة المستدير ، وكأنّ
تلك الرسوم في الماء كانت هي بعينها الحدّ الفاصل بين عالميّ
المحسوس والخيال .

استقرّت عينايا على القصر القديم حيث أرجو الاجتماع بها ،
ولم يكن في النوافذ نور ولا حول الجدران صوت يقلق سكون
المساء . ان قلبي ليحدثني بقلهاها ، أيكذبني اليوم قلبي ويخونني
الرجاء ؟ مشيت متمهلاً فاجتزت الباب الخارجي ووجدتني في
ساحة القصر حيث يسير الجندي الحارس ذهاباً وإياباً . بادرتُ
بالسؤال عن الكونتس فأجاب انها في القصر . فقرعتُ جرس
الدخول وانتظرت ، وفي تلك اللحظة دهشت لما أنا فاعل إذ قد
يكون بين الخدم من يعرفني ، ولا أنا أجراً على ذكر اسمي لأنني
قضيت الأسابيع الماضية تائهاً في الجبال وقد أهملت أمر لباسي
وهندامي حتى صرت أشبه بالمتسولين . فإذا أقول ، وعمّن
أسأل ؟ لم يطل هجسي لأن الباب فتح وظهر منه البواب في
زيّ خدم الأمراء وحَدّق فيّ مبهوتاً .

سألتُ عن السيدة الإنجليزية وصيفة الكونتس فقال انها

هناك. فطلبت قرطاساً وقلماً وكتبت إليها اني قدمتُ للاستعلام
عن صحة الكونتس .

فبعث البواب بالرسالة مع خادم سمعتُ وقع خطواته
المتباعدة في أبهاء القصر وممراته ، وما تلاشت تلك الخطوات
حتى صار موقفي لا يحتمل . فأخذت أنظر إلى ما علّق على
الجدران من صور أفراد الأسرة الراحلين : فرسان تدجّجوا
بالسلاح ، وسيدات ارتدين الزيّ القديم وفي وسطهنّ راهبة
بثوبٍ ناصع البياض وعلى صدرها صليب أحمر . لقد رأيت هذه
الصور قبل اليوم في أحوال مختلفة ولم أفكر قط أن قلوباً خفقت
في هذه الصدور . وها ان ملامح هذه الوجوه تظهر اليوم كتباً
ملأى بالمعاني وكأنها تقول جميعاً : « لقد عشنا نحن أيضاً وتألّما
مثلك » . نعم ، نعم تحت هذه الأسلحة دُفنت أسرار كالتي
تفطر الآن حشاشتي ، وفي صدر الراهبة ذات الثوب الأبيض
والصليب الأحمر جاشت العواطف المتلاطمة الآن في صدري .
خيّل إليّ ان العيون تطلّ عليّ من الرسوم مشفقة . ثم اختفت
الشفقة وحل الكبرياء مكانها وقالت الصور وأهلها : « أنت لست
منّا » ! وكانت تمرّ الدقائق فبنمو وجلي . إلى أن سمعتُ وقع
أقدامٍ خفيفة . وإذا بالسيدة الانجليزية تشير إليّ بدخول إحدى
الغرف . فنظرتُ إليها مستفسراً لأقف على ما تعرف ممّا جرى
ولكنّ سلاحها بقيت هادئة لا يبدو عليها دهشة أو تعجّب أو

أي اهتمام خاص . وقالت بصوت رزين ان صحة الكونتس في تحسن وانها ستقابلني بعد نصف ساعة .

مثلاً يأمل الغريق بالنجاة بعد يأس الموت اذ يرى نفسه آمناً على الشاطئ عقيب أن تقاذفته اللجج ، كذلك كان وقع هذه الكلمات في نفسي . ها أنذا أدنو إذن من حقيقة جديدة وما آلامي الماضية سوى أضغاث أحلام . قليلة هي هذه اللحظات ، لحظات الغبطة المتناهية ، في حياة الانسان وألوف ألوف من البشر لا يتذوقون هناءها . انما الأم التي تنأى رضيعها لأول مرة ، والوالد الذي يذهب لاستقبال وحيدته عائداً من الحرب وقد أثقلت جبهته أكاليل المجد والنصر ، والشاعر الذي تعترف له أمتة بالعبقريّة وتحياه بالهتاف والثناء ، والشاب الذي يشعر بأن يد فئاته تسيل حباً في يده ، أولئك وحدهم يدركون لذة الأحلام اذا هي انقلبت حقائق .

مضى الوقت المعين فجاء الخادم وسار بي خلال غرف كثيرة ثم فتح باباً فلمحت في نور الشفق الضئيل شبحاً أبيض أمام نافذة عالية أطلت على البحيرة والجبال المتلظية الساطعة .

— « ما أعجب تلاقي البشر بعد الفراق الطويل » ! سمعت صوتها العذب يلفظ هذه الكلمات فكانت كل منها برداً على قلبي وسلاماً .

فرَدَدْتُ كَلِمَاتَهَا قَائِلًا : « مَا أَعْجَبُ التَّلَاقِي وَمَا أَعْجَبُ
الْفِرَاقَ » ! وَأَمْسَكْتُ بِيَدِهَا فَأَدْرَكْتُ أَنَّنَا مَعًا وَعَلَى مَقَرَّةٍ
الوَاحِدِ مِنَ الْآخِرِ .

فَقَالَتْ : « إِذَا هُمْ افْتَرَقُوا فَمَا الذَّنْبُ إِلَّا ذَنْبُهُمْ » . قَالَتْ
ذَلِكَ وَصَوَّتَهَا الْمُنْجَمُ النَّهْرَاتِ عَادَةً كَمَوْسِقَى سَمَاوِيَةٍ ، يَتَهَدَّجُ
قَلِيلًا :

فَأَجَبْتُ : « صَحِيحٌ . وَلَكِنْ قَوْلِي لِي أَوَّلًا كَيْفَ أَنْتِ ؟ هَلْ
نَسْتَطِيعُ التَّكَلَّمَ ؟ »

فَقَالَتْ بِاسْمَةٍ : « يَا صَدِيقِي الْعَزِيزُ ، أَنْتِ تَعْلَمُ أَنَّ صَحْتِي
غَيْرُ جَيِّدَةٍ ؛ فَإِذَا زَعَمْتَهَا مَتَحَسَّنَةً فَعَلْتُ حَبًّا بِطَبِيبِي الَّذِي أَنَا
مَدِينَةٌ لِعَلَمِهِ وَعَظْفُهُ بِحَيَاتِي مِنْذُ حَدَائِثِي الْقَصْوَى . وَقَدْ وَقَفْتُ
حَرَكَةً قَلْبِي فِي أَحَدِ اللَّيَالِي قَبْلَ مَغَادِرَتِي الْمَدِينَةَ فَعَانَيْتُ الْمَاءَ
شَدِيدًا وَحَسَبْتُ تِلْكَ الْحَرَكَةَ وَاقِفَةً دَوَامًا فَرَاعَهُ ذَلِكَ وَلَكِنَّهُ
أَمْرٌ مَضَى فَلِمَ إِذَا نَذَرَهُ ؟ شَيْءٌ وَاحِدٌ يُؤْلِمُنِي : كُنْتُ أَرْجُو أَنَّ
يَعَانِقُنِي الْمَوْتَ بِلَا وَجَعٍ وَالْآنَ أَعْلَمُ أَنَّ الْأَوْجَاعَ سَتَعَذِّبُنِي سَاعَةَ
الرَّحِيلِ وَتَقْعَمُ تِلْكَ السَّاعَةَ مَرَارَةً . ثُمَّ وَضَعْتُ يَدَهَا عَلَى قَلْبِهَا ،
وَتَابَعْتُ » وَلَكِنْ ، قُلْ أَيْنَ هَذِهِ الْغَيْبَةُ الطَّوِيلَةُ ؟ وَلِمَ إِذَا قَطَعْتَ
عَنِّي أَخْبَارَكَ ؟ لَقَدْ أَوْرَدَ لِي الطَّبِيبُ جَمْلَةً أَسْبَابَ لِسْفَرِكَ الْفَجَائِي

فصارحته القول اني لا أصدقها في واحد منها . فذكر لي أخيراً
سبباً هو أدنى تلك الأسباب الى الغرابة . أتعلم ما هو ؟

فقاطعتها خوفاً من أسمع كلمة تؤلني وقلت : « قد يخال
السبب وهمياً وهو ليس بوهي . وهذا مضى أيضاً فلماذا
نذكره ؟ »

قالت : « لماذا مضى يا صديقي ؟ عندما ذكر السبب الأخير
قلت له اني لا أفهم ما تعنيان ؟ أنا فتاة عليّة بائسة وحياة
جسدي موت بطيء ، وقد أرسلت لي السماء صديقين يرثيان
لحالي أو يحباني - على زعم الدكتور - فأني شيء في ذلك يقلق
راحتي أو راحتها ؟ كنت أقرأ قصائد شاعري المحبوب
وردسورث قبيل محادثة الطبيب فقلت له : « يا طيبي العزيز إن
الأفكار كثيرة متنوعة والكلام المعبر عنها قليل فنرغم على
تصديق ما لا نقصد ولا يفهم الآخرون ماذا نريد باستعمال كلمة
واحدة فيؤلونها ما شاء الوهم والخيال . فلو سمع من يحلنا انني
أحب صديقي الفتى وإنه هو الآخر يحبني لخالنا شبيهين بروميو
وجولييت ، ولو كان الأمر كذلك لوافقتك على وجوب
ملاشاته . ولكن أليس انك تحبني أنت أيضاً يا طيبي الشيخ كما
أحبك ؟ ولقد أحببتك أعواماً طوالاً ولا أدري هل بحت لك
بذلك قبل الآن . فما أنا ببائسة ولا أنا بشقية . وأقول لك انك
خصصتني بمودةٍ شديدة وإنك تغار من صديقي الفتى . ألا

تأتيني كل صباح متفقداً حالي وأنت تعلم أنه لم يجد شيئاً ؟ ألا
تقدم لي أجل أزهار حديقتك ؟ ألم تحملني على إهداء صورتي
الك ؟ وهناك أمر آخر قد يحسن كتابته ، ألم تدخل عليّ يوم
الأحد الماضي فجلستَ قربي وأنت تحسبني مستغرقة في النوم ،
وحدقتَ فيّ طويلاً فكانت نظراتك كأشعة الشمس تلثم وجهي .
ثم بكيت وأخفيت وجهك براحتيك وقلت بصوت يقطعه
الشهيق « ماري ! ماري ! آه ، يا طيبسي العزيز ! صديقنا
الفقير لم يأت أمراً كهذا فلماذا أقصيته عني » ؟ قلت ذلك
بلهجة جمعت بين الجد والمزاح كما اعتدت مخاطبته فتورد وجهه
خجلاً وأسفت لإيلاام عواطفه . ثم أخذت كتاب وردسورث
وقلت « هذا رجل آخر أحبه بكل قلبي ، أفهمه ويفهمني مع
اني لم أره في حياتي . وأريد أن أتلو على مسامعك احدى
قصائده لتعلم كيف يحب البشر ويحبون وإن الحب بركة إلهية
ينزلها المحب على المحبوب فيفرش طريقه بالورد والرياحين » .
ثم قرأت له قصيدة « فتاة الجبال » . والآن يا صديقي الصغير ،
ادن السراج واتلُ لي هذه القصيدة ذات المعاني المنعشة . ان
روح الجبال الخفية تلامسها كما يلامس احمرار الشفق رؤوس الجبال
المكحلة بالثلوج البيضاء » .

تكلّمت فصارت عواطفني هادئة رضية جلييلة . انتهت
العاصفة وانعكس طيف البنية كصفحة البدر على بحيرة حيي ،
بل على بحر الحب الشامل الذي يدّعيه كلُّ لنفسه بينما هو ينتشر

في كل مكان لأن منه حياة بني الإنسان . الحب بحر الحياة
الهاديء الشائر معاً في كل قلب ، المفرق بين القلوب والجامع بينها
بعاطفة واحدة ووليه واحد . وددت أن ألزم الصمت كالطبيعة
المنبسطة أمامنا . غير أن الكونتس دفعت اليّ الكتاب
فقرأت : —

فتاة الجبال

« يا فتاة الجبال العذبة ، جمالك هو غناك الوحيد : أربعة عشر ربيعاً سكبت على وجهك بهاءها فحسبك هي ثروة وجاهاً .

« هذه الصخور الرمادية ، وتلك الأشجار الشبيهة بستار أسفر عن نصف وجه السماء ، وذايك الشلال المهمم في أذن البحيرة المنصتة ، وذايك الخليج الصغير ، وهذه الطريق الضيقة المؤدية الى مسكنك ، جميعها تحال مرسومة بخطوط الأحلام وألوانها . وأنا أباركك من أعماق قلبي ، يا فتاة يبعث جمالها في هذا النور الأرضي نوراً سماوياً .

« ليكون الله عونك حتى اليوم الأخير ! أنا لا أعرفك ولا أعرف ذويك على أن العبرات تجول في عيني . سأذكرك في صلواتي بخشوع بعد ذهابي لأني لم أر حتى اليوم وجهاً كوجهك بدت فيه الرقة في حشمة واللف في طهر تام .

« تعيشين هنا بعيداً عن البشر كبذرة قدفت بها يد

الصدف ، فلا ترخين أجفانك خجلاً ولا ترتدي ملاحك احمرار
الحياء . على جبهتك تتجلسى حرية أهل الجبال وصراحتهم ،
وفي ابتسامتك يبسم الجود والحنان ، وعطفك يتدفق تدفق
خواطرك المنعقدة من ذهنك رغم قيود جهلك وعلى قلّة متاعك
اللفظي . قيود تشعرين بها وتجاهدين في التغلب عليها فتجنيء
اشارتك مفعمة نشاطاً ولطفاً معاً . كذلك رأيت مرة أطيّاراً
تصفق بأجنحتها المكافحة العاصفة .

« كل يد تقطف لك الأزهار ، أيتها الحساء ، فيا سعد من
عاش قريبك في وادٍ صغير كثيف الشجر كثير الزهر ، يلبس
كملابسك ويرعى الأغنام مثلك ! وهناك أمنية خير من هذه :
ولكن -

« أنت موجة من البحر الإنساني العجيب . ليت لي بعض
السلطة عليك وليتني من جيرانك لأتمتع بصوتك وأهناً بمرآك !
بل ليتني أخوك الأكبر أو أبوك أو أي واحد من أقاربك !

وأني لأحمد السماء التي قادني الى هذا المكان المنفرد حيث
عرفتُ السرور . سأذهب حاملاً معي الجزء لأن للذاكرة ميزة
كانها ميزة النظر . فلماذا أكره الابتعاد ؟

« وها اني أفرح وأتألم في آن واحد لفراقك ، يا فتاة الجبال
الحلوة ! وسأحفظ أبداً في ذاكرتي هذه المشاهد البهية حية كما

أراها الآن ، كوخك الحقيق ، والبحيرة ، والحليج ، والشلال
لا سيما أنت الروح المحيية جسم هذا الجمال .

وكانت معاني القصيدة تهبط على روحي كقطرات الندى .
وإذا بصوتها العذب يتصاعد كنغمة الأرغن تنبه المصلّي من
تأملاته العميقة ، فقالت :

« هكذا أريد أن تحبني يا صديقي ، وهكذا يحبني الطبيب ،
وعليّنا أن يحبّ بعضنا بعضاً هذا الحب وأن يثق الواحد بالآخر
هذه الثقة . وعلى قلة اختباري أظن أن العالم لا يفهم هذا الحب
فجعل بنو الإنسان هذه الأرض صحراء يقطنها القحط والكآبة .
لا بدّ أن الحال كانت على غير ما هي في غابر العصور وإلاّ لما
حدّثنا هوميروس عن نوزيكا ذات القلب الحساس . أحببت نوزيكا
أوديسئس للنظرة الأولى فأسرّت الى صوحيحاتها «حبذا الاقتان
به ! ولت المقام بيننا يطيب له » ! ولكنها خجلت أن تسير
مع غريب له هذا الجمال الباهر لئلا يقال انها بحثت عنه . فما
أبسط هذه الحكاية وأقربها الى الواقع ! وعندما قيل لها بوجوب
رجوعه الى زوجته وولده لم تتذمّر ولم تشكّ بل امتثلت
واختفت ، ونحن القراء نشعر بأنها حملت أبدأ في فؤادها صورة
ذلك الغريب القويّ الجميل . لماذا يتجاهل شعراؤنا هذا الحب
الصادق وهذا الفراق الهاديء ؟ أما الشاعر العصري فيخرج من
نوزيكا حبيبةً لثرت لأن الحب لم يعد سوى مقدمة لمأساة

الزواج. أهذا هو الحب دون سواه؟ هل جفّت ينابيع السعادة الطاهرة؟ ألا يريد الناس أن يعرفوا من الحب غير الحمرة المسكرة ليتجاهلوا ينبوعه العذب الشافي الظمأ؟

فأردت تعزيز كلامها واستشهدتُ بالشاعر الإنجليزي القائل
« ألا يحق لي أن أبكي لما فعل الإنسان بالإنسان؟ »

فقلت: « ما أسعد الشعراء! كلماتهم تنطق العواطف الخرساء في ألوف القلوب وتنشد الأصوات أناشيدهم لإظهار أسرار الجنان. فؤادهم يخفق في صدر الغني والفقير على السواء فيطرب معهم السعداء ويبكي التعساء لبكائهم. غير أن وردسورث أحبهم إليّ: من أصدقائي من ينفي عنه الشاعرية. أما أنا فأحبُّ منه أعراضه عن الاستعارات العادية، وتجنبه الغلوّ والمبالغة وما يسمونه « الطيرة الشعرية ». هو صادقٌ وأيّ ميزة توازي هذه؟ هو يفتح عيوننا على الجمال المنتور تحت أقدامنا نثر زهرات الاقحوان في الرياض والمروج، ويسمي الأشياء بأسمائها، ولا يحاول إذهالنا وتغويرنا بل يرغب في اظهار الموجودات يزينها جمال الطبيعة قبل ان تشوهها يدُ الإنسان. أليست قطرة الندى على الحشيش الاخضر أتم بهاءً وأوفى ثناءً من وُلؤةٍ ثمينة صيغت في قالب الذهب؟ او ليس الينبوع المتدفق من صدر الأرض أجلّ وأبدع من مياه فرساي الاصطناعية على الاطلاق؟ أليست قصيدة « فتاة الجبال » ألطف وأصدق من

« هيلانة » جوتي و « هايدي » بيرون ؟ اني آسفة لعدم وجود من يماثل وردسورث في جلاء الفكر وسذاجة التعبير بين شعرائنا . قد كان يشبهه « شار » لو انه استوحى خفايا نفسه بثلاث استوحى تاريخ اليونان والرومان ؛ كذلك « روكرت » قد كان يداينه لولا انه آثر عيشة الرغد والرخاء بين ورود الشرق على سكنى وطننا الفقير . قلّ الجريء من الشعراء الراضي بنفسه ، المقدم على إظهارها مجردة من الزوائد : ووردسورث ذلك الشاعر . وكما نستمتع برضى إلى أعظم النوايح حتى عندما لا يكونون أعظم أملاً في مشاركتهم في الشعاع الساطع المنزل اليهم من شمس اللانهاية كما شاركناهم في أفكارهم العادية المألوفة ، كذلك أحبّ وردسورث ونفسه حتى في القصائد التي لم تضمن فكرة مستحدثة . لا بدّ لكبار الشعراء من نوبة راحة يغيب فيها عنهم الوحي والبيان الخلاّب . فقد نقرأ عند هوميرس عشرات الابيات لا تزينها لمحة جمال ؛ وكذلك دانتي . بينا بندرس الذي يستفزّ إعجابكم جميعاً يضعف احتيالي وينفذ صبري بدوام ذهوله وافتتانه . اني لأضحّي أثمن مالديّ لأتمكن من الاصطياف على شاطئ البحيرات حيث يقيم وردسورث فأزور معه الأمكنة التي أحبّ ووصف ، وأحيي الأشجار التي حماها من ضرب الفؤوس ، وأرقب قربه غياب الشمس الذي أبدع في تصويره بالألفاظ إبداع مصوّراً « ترنر » في تمثيله بالألوان .

لم يكن صوتها لمهبط شأن الأصوات الأخرى في نهاية الخطاب بل كان يرتفع ويقف على نبرة استفهام ، كأنها الطفل القائل « أليس كذلك ، يا أبي » ؟ كان ذلك الصوت يصعد نحو مخاطبها بدلاً من أن يهوي عليه ، تمازجه أنتة توَسَّل تجعل مخالفتها أمراً عسيراً .

فقلت : « وردسورث عزيز عليّ شاعراً وعزيز رجلاً . الأفكار في شعره آكام صغيرة تتسلقها بلا تعب بيناهي عند غيره جبال باذخة مخفوفة بالصعاب والأخطار . لم أكن أكرث له في البداية حين كان يذهلني أن يعجب به أكبر عقول النجلترا الحديثة هذا الإعجاب العظيم ؛ ولتني اقتنعت بالتسالي ان شاعراً تنظر اليه امته نظرة الاكبار وتنزله من تقديرها تلك المكانة لجدير بأمر يُدرس ويستقصى ، وإنما تجاهل وجوده خسران للمتجاهل . الإعجاب فنٌّ لا يكتسب بلا دراسة وتمرين : فمن الألمان من لا يذوق راسين ، ومن الإنجليز من لا يفهم جوتي ، ومن الفرنسيين من لا يرى في شكسبير إلاّ "فلاحاً خشناً" . وما مغزى ذلك ؟ مغزاه أن طفلاً غريباً يفضل موسيقى الرقص على إيقاعات (Symphonies) بتهوّن ذات الفخامة والجلال . فن الإعجاب الضميم قائم في اكتشاف أرواح الشعوب والتعمق في دراسة كتب تكبّرهما الامم ، ومن بحث عن الجمال عثر عليه وعلم أن الشعوب لا تعظم من نوابغها إلاّ من كان حقيقاً بالإعجاب ، وان الفرّس لم يكونوا مخدوعين في حافظهم ، ولا الهنود في

كاليدازا . لا يفهم الرجل العظيم من المجابهة الأولى ولا يوصلنا
إلى اكتناؤه غير المشابرة والنصب والعمل . ومن الغريب أن
ما يرضينا لأول نظرة لا يطول استحساننا له .

فقلت : « ولكن هناك سرأ يشترك في كتمانته وإذاعته معاً
جميع الشعراء وجميع الفنانين وجميع أبطال العالم سواء أكانوا
فرساً أو هنوداً أو رومان أو ألمان وأكاد لا أدري كيف أصفه :
هو فكرة اللانهاية المنبسطة أمامهم ونراها نحن خلال كلامهم
وآثارهم . هم يقرأون ما لا نقرأ في كتاب الأبدية ويؤلهون
الاشياء التي نزعها صغيرة زائلة . أما سمعت غوتي ذلك الوثني
الصميم منشداً كيف يؤلّه « السلام العذب النازل من السماء »
حيث يقول :

« انتشر السلام على الهضاب :

وبين رؤوس الأشجار الباسقات

لا أثر لهبوب النسيم .

وصغار الطير نائمة في الغاب

فانتظر قليلاً ، عما قريب

ترتاح أنت كذلك »

عندما نسمع أو نقرأ هذا ألا نرى أشجار الصوبر ووراءها
المسافة الفيحاء انتشرت فيها راحة لا تستطيع الأرض ان تنيلنا

إياها ؟ فكرة الانهائية تجدها أبداً في قصائد وردسورث ،
وذلك السر الكامن وراء الألفاظ والاسجاع والاوزان هو هو
الذي يحرك القلب دون غيره . من ذا الذي فهم الجمال الأرضي
أكثر من ميكلائيلو الطلياني ؟ ولكنه فهمه لأنه علم أنه انعكاس
الجمال السماوي . ألا تذكر موشحه لحبيته فيتوريا
كولونتا : -

« قوة الوجه الجميل تدفعني نحو السماء
ولا أرتاح على الأرض إلى وجه سواه ؛
وبه أحيا متعالياً بين الأرواح المصطفاة
وهي موهبة قلّ أن يتمتع بها الإنسان الفاني »



« ومع المبدع الذي أبدع صنعها ،
وبنعمته وبمساعده أرفع إليه خواطري
وأوقع على انسجام صنيعه أفكاره وأعمالي
لأحب بحرارة امرأة مليحة



وإن قصرت دون تحويل نظري
عن عينيها الجميلتين المتألفتين

بنور يدلني إلى سبيل الله ؛
 ان قصرت وأحرقني اللهب علمتُ
 ان تلك النار النبيلة المتأججة في قلبي
 إنما هي انعكاس الشعاع السامي
 الساطع أبداً في ديار المجد والخلود »

بدت عليها آثار التعب فأحجمتُ عن الكلام فاحترمتُ
 سكوتها . ان قلوب الناس تميل إلى الصمت بعد تبادل الافكار
 القيّمة ، ويخيل أن الملائكة تفرّج فوق رؤوسهم . نعم خيل
 إليّ أن أجنحة ملائكة الحب والسلام تحيّم في تلك الغرفة .
 نظرتُ إليها فبدتُ بثوبها الأبيض كالرؤيا تتجلى في الشفق العابس
 وإنما يدها المستسلمة في يدي أثبتت لي حضورها الحسي . وأرسل
 الغروب المودع على محياها شعاعاً باهتاً ففتحت عينيها وحدثت
 في مدهوشة مستفسرة . فسطم نور عينيها العجيبتين كبرق
 خاطف بين أجفانها الوطفاء . وإذا بالبدر صاعداً بين الجبلين المقابلين
 يسكب ابتساماته على القرية الصغيرة والبحيرة الهادئة . لم أر
 حياتي مساء أبهى من ذلك المساء ووجهاً أجمل من ذلك الوجه —
 وجه الحبيبة كما كان في تلك الساعة . فشعرتُ بموجة حب تطفو
 فوق قلبي فقلت ثلاً « مارى ! دعيني أعترف لك بحبي وأنا بهذا
 الفتون ! ألا تشعزين معي بقربنا الآن من السماء ؟ ألا فلتتحد
 نفسانا بقوة لا تسطو عليها قوة ! دعيني أفضي اليك بحبي . اني

أحبك يا ماري كائنًا الحب ما كان ، وأشعر بأنك لي
لأنني لكِ .

جثوتُ قربها ولم أجرأ على النظر إلى عينيها . فسحبتُ يدها
من يدي متمهلة مترددة في البدء وبالتالي مسرعة مصممة .
فرفعتُ طرفي إلى وجهها فرأيت عليه أمارات الألم . وبعد
سكوت طويل تلمعتُ وزفرتُ زفرة عميقة وقالت : « كفى ؛
لقد آلمتني ، على أن الذنب ذنبي والتبعة عليّ » . أقفل النافذة
لأنني أحس ببرد قارس كأن يداً غريبة لمستني . ابق معي - لكن
لا ، اذهب . وداعاً ، ونم نوماً هادئاً وابتهل إلى الله أن يشملنا
برعايته . سنجتمع مساء غد ، أليس كذلك ؟ » .

أواه ، أين ذهب الهناء وكيف ولت الطمأنينة ؟ خرجتُ
من الغرفة وبعثتُ بالسيدة الانجليزية إليها وامتُ في الظلام .
مشيتُ طويلاً على شط البحيرة وعيناوي يقربان نافذة الغرفة التي
ضمتني وإياها منذ حين . أخيراً خبتُ جميع أنوار القصر وتوسط
القمر كبد السماء وسقطت أشعته عامودياً على الأرض فبدت
خطوط الشرفقات والجدران من ذلك القصر كأنها أضيئت
بفانوس سحري . وبقيتُ وحدي في الليل الادهم : أفكاري
موجعة ، وقلبي سقيم ، ونفسي منفردة لا يحبها ولا يريد لها
العالم أحد . شمت الأرض نعثاً والسماء كفنّاً يدور حولي ولم أدر
أحيى أنا أم ميت قضى منذ زمن بعيد .

وإذ أطلتُ النظر إلى النجوم ذات المقل اللامعات ، وهي
تتم دورتها بانتظام حسبتها منشورة في الفضاء لتنير القلوب المظلمة
وتعزي النفوس الآيسة. إذ ذاك فكرتُ في نجمين سماويين أشرقا
من عيني الكونتس ماري على أفقي الحالك السواد وسجدتُ
في فؤادي عاطفة الشكر والحنان لفتاتي العذبة وملكي
الحارس الأمين .

الذكرى الأخيرة

كانت الشمس مشرقة على رؤوس الجبال وقد دخلت أشعتها
من النافذة ساعة استيقظتُ من رقادي . أهذه هي الشمس التي
شيعتها البارحة بنظرات الرجاء والغرام عند ما انبسط قرصها
كيدٍ صديقٍ يبارك اتحاد قلبينا ، ثم هبطت وتوارت كمضجحلّ
الآمال ؟ ها هي الآن مشرقة تأتي إلى كطفل يهنئي بعيدٍ
ميمون . لقد عادت إليّ حيويتي المعتادة وتنبت في الثقة بالله
وبنفسى ، ترى أنا هو ذاك الفتى الذي انطرح على الفراش منذ
ساعات قلائل مضني الجسد خائر الروح ؟

ما حالنا لولا سنة الكرى ؟ نحن نجعل إلى أي العوالم يمضي
بنا هذا الرسول الليلي حينما نستسلم له بعيون مغمضة وليس من
يتكفل بفتحها في الغد ليعيدنا إلى يقظة العمر . لقد تعلق
الإنسان بأهداب الشجاعة والإيمان يوم تلقاه الصديق المجهول

فنوّمه النومّة الأولى ، ولولا ما فطرنا عليه من ثقةٍ وامتنال لأبى الواحد منّا ، رغم التعب والنصب ، أن يغمض عينيه بمحض إرادته ويدخل مملكة النوم . إنّما هما الضعف والشقاء تشدّ علينا وطأتهما فنلجأ إلى قوّةٍ عليا ونرضخ للنظام البديع النافذ في جميع الكائنات ، فنسعد إبان الرقاد بجمل الروابط التي تقيد ذاتنا الأبدية الخالدة بذاتنا الأرضية الزائلة .

كل ما جرى بالأمس وكان في ذهني مبهماً كضباب المساء أصبح الساعة جلياً . شعرت بتقاربنا الواحد من الآخر كأننا أخ وأخت ، أو أب وابن ، أو خاطب ومخطوبة ، وأتينا لا يحول بيننا انفصال . بحثتُ عن معنى ما يدعوه البشر « حباً » ووددت ، كالشاعر ، أن أكون أختها أو أبها أو أي قريب لها . وددتُ أن أهتدي إلى اسمٍ يعرفني الناس به عندها لأن العالم ينكر من لم يحمل اسماً وكنيةً . هي قالت انها تحبني حباً طاهراً يكنه قلبها للنوع الإنسانيّ بأسره وهو مصدر كلّ صنوف الحب . غير أنها خافت وتألّت لسماع اعترافي ، وهذا الألم وذاك الخوف اللذان أتعساني البارحة هما اليوم في عينيّ حجةٌ راسخة على عاطفة تخصني بها . لماذا نحن نسعى في تفهم نفوس الآخرين ونفوسنا مغلفة على بحثنا ؟ ولماذا يستأسرنا ما لا نحسن تمييزه في الطبيعة والأفراد والقلوب ؟ أمّا الأشخاص الذين نعرف منهم جميع

الحركات النفسية والبواعث الفكرية فلا ننفع بتأثيرهم ولا نغيرهم التفاتاً ، ولله شيء يكلج البهجة والروث من محيّا الحياة كزعم أولئك الماديين الذين يشرّحون المعاني ويحلّلونها تحليلاً علمياً لينفوا عجائب النفوس وأسرار الافئدة . انّ في كل كائنٍ غموضاً يستحيل إدراكه ويتعذر تعريفه : أهو إلهام ، أو قدر ، أو خلق ؟ لا الفرد يعي معنى ذلك الغموض المستتر فيه ولا اهتدى الباحثون الى تفسيرٍ مقنع مرضي . وهكذا كل ما حملني بالأمس على القنوط صار اليوم ينبوع أمل . وما زلتُ بقلبي أعلمه حتى تبدّدت الغيوم من جوّ مستقبلي السعيد .

خرجتُ إلى الهواء الطلق وإذا برسول يحمل من الكونتنس كتاباً . عرفتُ خط يدها الجميل الرزين فرجوت في تلك اللحظة أعز ما يرجوه العاشق . ويا لسرعان ما خابت آمالي ! سألتني في الرسالة أن لا أزورها بعد الظهر لأنها تنتظر ضيوفاً من المدينة ، ولم تخط كلمة مودة أو كلمة تطمين ، وإنما أضافت حاشية معناها أن الطبيب يأتي غداً فاللقاء إلى بعد غدٍ .

يومان يمزّقان من كتاب حياتي ! ويا ليتهما لم يكونا فلا أحتملها فوق رأسي كسقف سجن مظلم . عليّ أن أصبر عليهما ولست مخيراً في التصدّق بهما على ملك عوجل بالخلع عن عرشه ، أو في التبرّع بهما للمتسوّل يدور حول أبواب المعابد . أطرقتُ

وطال اطراقي ، فذكرتُ صلاةُ الصباح لأت اليائس أحوج
 ما يكون إلى الايمان ، وكالفارس يرى الهوة أمامه فيُحكم شدَّ
 اللجام ، قلت « فليكن ما لا مناص منه » ! ولأقبلنه طائعا دون
 تدمر فאלله لم يخلقنا للغم والمرائي » .

ولماذا لا أتعزى بهذه السطور التي خطتها يدها ؟ ولماذا لا
 أتعزى بأمل الاجتماع القريب ؟ سل من عالج السباحة يشربُ
 بوجوب رفع رأسك فوق الأمواج ، وإلا فاعطس ولا تدع من
 فمك وعينيك للماء سبيلا . ان لم ترضنا الحياة كواجب فلنقبلها
 ونعالجها كفنٍ . كلنا هنا أطفال ، ولكن ما أغباه طفلا يستسلم للغضب
 أو يركن إلى العبوس كلما شعر بال ألمٍ أو حبط له مسعى ! وما أحبه
 طفلا إن بكى ظلت شمس السرور مشرقة في عينيه شروق
 الزهرة الناضرة وراء غيث نيسان ، فلا يطول حتى تنفتح
 أوراقها ويفوح طيبها لأن حرارة الشمس تمتص عنها قطرات
 المطر .

وعادت إليّ خاطرة فبدأت انفذها : ذاك اني طالما تمنيتُ
 تدوين كل كلمة سمعتها منها وإثبات ما ائتمنتني عليه من جميل
 الآراء . وها قد حان الوقت الملائم . فصرفت اليومين مستحضراً
 ساعات اللقاء محيياً آثارها . وكنت قريباً منها شاعراً بحبها
 كأني ممسك بيدها .

وما أغلى تلك الصفحات لديّ ! كم من مرة قرأتها وأعدتُ قراءتها ! هذه شهود سعادتي الغابرة ، يطلُّ من بين سطورها عليّ وجهٌ معروف وينظر إليّ صامتاً وسكوته أفصح من الفصاحة . يتلو عليّ ذكريات الأسى والهناء فيرجعني إلى الماضي وانطرح على مجموعة حوادثه كالأم على ضريح ولدها الميت منذ أعوام ولا رجاء لها بضمّه إلى صدرها مرةً أخرى ، هذه العاطفة نسيمها حزناً ، ولكنّ في الحزن غبطةٌ يعرفها الذين أحبوا كثيراً وتألّموا كثيراً .

سل الوالدة عما تشعر به عندما تسدل على وجه ابنتها العروس نقاباً لبسته يوم زواجها ، مفكرة في زوجها الذي أخذته المنية فحرمتها منه . سل الشاب عما يشعر به ازاء وردة ذابلة جاءتْ من حبيبته المتوفية وكان أهداها اليها قبل أن يفرق بينهما العالم . كلاهما يبكي وليست دموعهما دموع فرح ولا دموع ترح ، بل هي دموع ضحية قدّمت آلامها إلى الله بخوراً بعد فناء الآمال ، وقنعت بالإيمان والثقة بحكته غير المتناهية .

ولنعد إلى التذكريات التي تجعل الماضي حاضراً : انقضى اليومان وجوانحي تختلج حبوراً كلما ولّت ساعة فأذنت بقرب

اللقاء . وقد كثرت المركبات في اليوم الأول وجاء الفرسان من المدينة فامتألاً القصر بالضيوف والزائرين وخفقت فوق قبه الألوية وصدحت الموسيقى في ساحاته . وعندما أرخى الظلام سدوله ازدحمت الزوارق والقوارب في البحيرة وترددت هلى صفحة الماء أصداء الأناشيد والأغاني . فأطلتُ الإصغاء لعلمي أنها هي الأخرى حصية من نافذتها . وظلت الحركة والجلبة في القصر إل ما بعد ظهر اليوم التالي حيث عاد الضيوف أدراجهم ، وآخر مركبة عادت في المساء إلى المدينة كانت مركبة الطبيب .

عندئذٍ ضاق صبري وفكرت « ها هي وحدها ، أشعر إنها تفكر فيّ وتتمنى وجودي معها . أترك ليلة أخرى تمرّ دون أن ألمس يدها فرحاً بانتهاء الفراق وابتداء التلاقي الجديد ؟ أرى في نافذتها نوراً فهل أدعها هناك بلا رفيق ؟ ألا يصحّ أن أتمتع ولو هنية بحضورها العذب » ؟ وجدتني فجأة أمام بابها وقد ارتفعت يدي لقرع الجرس . فتوقفتُ قائلاً « ألا سحقا للضعف والتبذل ! إن أنا دخلت عليها الآن وقفت أمامها خجلاً كسارق يتوارى بالظلام . سأتي إليها صباح غدٍ ، سأعود إليها كبطل استحق أن تضفر لجبينه الكليل الحب .

جاء الصباح وذهبت إليها . أواه ! لا تقولوا ، أيها

الروحانيون ، ان الروح تحيا بلا جسد ! الحياة الحقيقية والسعادة التامة لا يجتمعان إلاّ حيث يتوحد الروح والجسد فيصيران روحاً جسديةً وجسداً روحياً . الروح بلا جسد شبح ، والجسد بلا روح جثة . وهل تخلو زهرة الحقل من الروح ؟ أليس إنها تبرز بقدرة الفكر الباري الذي ينيلها الحياة والجمال ؟ ذلك الفكر هو روحها ولكنه أبكم فيها بينا هو ناطق في الإنسان . الحياة الحقيقية حياة الروح والجسد معاً ، والاجتماع الحقيقي اجتماع الأرواح الأجساد جميعاً . أما العالم الذي عشت فيه سعيداً يومين كاملين فقد اضمحل الآن كالخيال ، أو كتشهد العدم ، لأنني الساعة أراها بالروح والجسد .

تمنيت أن أضع يدي على جبهتها وأمس أجفانها لأثبت من وجودها بالذات وليس بالصورة الحائلة حول روحي ليل نهار ، بل كشخص غير شخصي يحبني ويتوق إليّ ، شخص أثق به ثقّي بنفسي ، بعيد عني إنما أقرب إليّ من نفسي وبدونه ليست حياتي بالحياة ، ولا موتي بالموت ، وما أنا سوى لهاث ضائع في الفضاء غير المتناهي .

استقرّت عليها طويلاً أنظاري وأفكاري فشعرت بتكامل الحياة فيّ ولم يعد يرهبني الموت لأنه لا يقوى على إفناء هذا الحب العظيم إنما هو يكسبه متانةً ونبلاً .

ما أعذب السكوت قريبا وقد تجلّت نفسها في وضع أعضائها
ومجموع هيئتها وتتابع السرائر في عينيها ! بقيت صامتة وشيء
فيّ يصني كأنني سمعتها تهمس في قلبها « انك تؤلّي » . ثم بعد
هنية « هل اجتمعنا مرّة أخرى ؟ كن هادئا ولا تيأس ،
لا تسل ولا تستفهم ، اني أرحب بك فلا تسخط عليّ » . كل
هذا قرأته في عينيها ولكنها لم تتلفظ بكلمة منه . وفتحت
شفتيها أخيراً وقالت بصوتٍ متهدج : « ألم يصلك كتاب من
الطبيب » ؟

أجبت « كلا »

فقلت : « الأفضل إذن أن تسمع الخبر مني . اعلم يا صديقي
أننا نلتقي اليوم للمرّة الأخيرة . فلنفرق بلا تدمر . لقد أسأت
اليك عن جهل إذ كيف أعلم أن للنسيم العليل من القوة ما يسقط
عن الزهرة وريقاتها ! كنت قليلة الخبرة فلم أتوقع أن توحى اليك
فتاة بائسة نظيري سوى عواطف الرحمة والإشفاق . ولقد
أنزلتك على الرحب والسعة لأنك صديقي منذ أعوام طويلة ،
وسعدتُ بقلبك ، لماذا أخفي الحقيقة ؟ لأنني كنت أحبك . إنما
المجتمع لا يفهم هذا الحب ولا يسمح به . لقد فتح الطبيب عينيّ
وأخبرني أن حكايتنا شائعة تتفكّك بتفاصيلها أندية المدينة ،
وكتب إليّ أخي الأمير يسألني أن أقطع كل علاقة بيني وبينك .

ان أسفي لأملكَ شديد . ولكن قل أنك تعفو عني ، ولنفترق صديقين كما التقينا .

قالت هذا وأسبلت أجفانها لتخفي عني دموعها . فأجبت :
 « لي يا ماري حياة واحدة وهي قريبك ، وإرادة واحدة وهي إرادتك . أحبك بحرارة الحب وحرقتك ، ولكني لست أهلاً لك . أنت أرفع مني مقاماً وشرفاً وطهرأ فكيف أرجو أن أدعوك يوماً زوجتي ؟ وليس ثمة من وسيلة أخرى للسير معاً في سبيل الحياة . ماري ، أنت حرة وأنا لا أريد أن تضحي لأجلي شيئاً ما . العالم واسع وإن أردت الفراق فلن نجتمع . ولكن إذا شعرت بحب لي وبأنك خاضتي فاعرضي عن المجتمع وانسي أحكامه البلاء ، ودعيني أحملك على ذراعي إلى الهيكل فأجنو هناك وأقسم أن أكون لك في الحياة والموت » .

فأجابت متمهلة : « تمنى المستحيل حرام يا صديقي . لو شاء الله أن يجمع بيننا لما بعث إليّ بهذه الاوجاع التي تجعلني طفلة عاجزة بائسة . لا تنس أن ما ندعوه قضاءً وقدرأ ، أو ظروفأ ، أو فروقأ اجتماعية إنما هو في الحقيقة ارادة الله ، ومن طمع في التغلب عليها فقد عصى الله وكان غرأ داعياً إن لم يكن شاذأ أثيمأ . إنما الناس على الارض كالكوكب في عرض

الفضاء يسلكون سبيلاً خطتها يد الله فإن تواجهَ فيها اثنان
فذاك إلى حين ثم يفترقان مسيرين . وباطلاً يحتجان ويقاومان
فنظام الكون باقٍ على ما هو إلى الأبد . أنا لا أرى موضع الخطأ
في حيي لك . غير أن الآخرين يرونه فحسي يا صديقي . ولنمثل
بتواضع وإيمان .

كان صوتها هادئاً يئن فيه الألم العميق ، ولم أشأ أن أتخلّى
عن الجهاد منذ الخطوة الأولى ، فضبطت انفعالي ما
أمكن لئلا أتهور مجازفاً بكلمة تزيد في ألمها وقلت
« تقولين ان هذه مقابلتنا الأخيرة فدعيني أعلم لمن نضحي
ذواتنا . لو خالف حبنا نظاماً علوياً لامتثلت معك
بتواضع وإيمان . ولكن الحب هو ارادة الروح السامية وتسخير
تلك الارادة هو انكار ارادة الله . طالما حاول الانسان مخادعة
الله كأن دهائه كفيلاً بتضليل الحكمة الربانية . وهذا محض
جنون نصيب من اقتحمه نصيب قزم يبارز جباراً فليس أمامه
من عاقبة سوى أن يسحق ويتلاشى . لا شيء يقوم في وجه
حبنا غير التقول والافتراء ، فما هو التقول والافتراء ؟ أنا أحترم
أنظمة المجتمع ، أحترمها حتى في تشعبها وارتباكها الحالي لأن
الجسم العليل لا يشفى بغير العلاج المركب . وبدون الفروق
الاجتماعية والاصطلاحات والعادات التي كثيراً ما نضحك منها

يستحيل ترابط البشر فيما بينهم والتعاون لبلوغ غاية وجدنا على الأرض لننتهي اليها . فيتحتم اذاً تضحية الشيء الكثير لتلك الآلهة الكاذبة ، وكأهل أثينا الذين كانوا يرسلون كل عام سفينة مشحونة بالشبان والفتيات يقدمونهم قرباناً ، علينا أن ننحر الضحايا على هيكل الحيوان المسيطر على تركيب نظامنا الاجتماعي . ولكن ثقني أنه ليس من قلب حساس رقيق إلاّ تعذب وتقطر ، ولا من رجل ذي إدراك وشعور إلاّ وأرغم على اطباق جناحي حبه ليسجنه في القفص الاتفاقي الضيق وذلك حادث أبداً قديم جديد . أنت لا تعرفين المجتمع . ولكني لو قصرت الكلام على أصحابي لأسمعتك من المفجعات ما يملأ أسفاراً : أحب أحدهم فتاة فأحبته هي كذلك . ولكنه كان فقيراً وكانت هي غنية ، فتخاصم الأهل والمعارف وتقاذفوا السباب والشتائم وكانت النتيجة انسحاق القلبين . لماذا؟ لأن المجتمع يرى منتهى الحطة والذل في أن ترتدي السيدة ثوباً مصنوعاً من صوف النبات الأمريكي وليس من نسيج الدودة الصينية .

« أحبّ آخر فتاة فأحبته أيضاً . ولكنه كان پروتستانياً وكانت هي كاثوليكية . فقامت عليها قيامة الكهنة والامهات وانسحق القلبان . لماذا؟ لأنه حصلت مناورات سياسية بين

تشارلس الخامس وفرنسيس الاول وهنري الثامن منذ
ثلاثة قرون .

وأحب غيره فتاةً فأحبتهُ هي أيضاً . ولكنهُ كان شريفاً
ولم تكن هي ذات حسب ، فتصلَّبت كبرياء اخوته وألهبت
الغيرة اخواتها وانسحق القلبان . لماذا ؟ لأن جندياً قتل آخر
كان يتهدد حياة الملك وعرشه منذ عشرات أو مئات الاعوام
فأعْدق عليه مولاه اللقاب والرتب ، وها ان حفيده اليوم
يفكّر عن ذلك الدم المسفوك بخلقٍ نُخره الفساد وصحة ترعى
فيها العلل .

» يقول علماء الاحصاء ان عدد القلوب المتفطرة يرازي عدد
الساعات . وأنا أميل إلى التصديق ، لماذا ؟ لأن المجتمع ينكر
كلّ حبٍّ بين غريبيين ان لم يرتبطا برباط الزواج . فإن أحببت
فتاتان رجلاً ضحيت إحداهما ، وإن أحبّ رجلان امرأة تحتم
أن يضحي أحدهما أو أن يضحيا معاً . لماذا ؟ لماذا يحظر على
رجل حبّ فتاةٍ ليس له أن يقتن بها . أكلّ الحبّ في أن
يهرب الرجل بالمرأة كأنها غنيمة حربية ؟ أراك تغمضين عينيك
فأدرك أنني أطلت الكلام . لقد دنس المجتمع أقدس معاني الحياة ،
قاسمي يا ماري . فلنستعمل لغة العالم عندما نكون فيه متكلمين
ممثلين فاعلين . ولكن فلنحفظ بعيداً عنه محراباً طاهرأ يختلي

فيه قلبان صادقان ليتكلما بلغة الحبّ والاخلاص دون أن يتأثرا
 بغضبه أو يكثرثا لصواعقه . والمجتمع يكبر هذه المقاومة العنيفة
 من قلبٍ أدرك حقوقه وعرف عظمته فأثر على الاحكام البلهاء .
 لا بأس بالاصطلاحات والعادات في حل اعتدالها لأنه حسن أن
 تعرش « اللبلابا » بألوف الاغصان والحبال على الجدار القوي .
 ولكن حذار من الافراط لئلا ييجد النبت الطفيلى منفذاً إلى
 داخل البنيان فيفسد إحكام أجزائه ويهدم متانة أركانه . ان
 حبنا لا يضر بشراً ولا يؤذي أحداً بل يسعد نفسينا ويرفعنا
 إلى عرش مبدعنا . فاتبعي مشورة قلبك واصغي إلى صوت
 ضميرك ثم أجيبي . ماري ، كوني لي ! اعلمي ان الكلمة المرتعشة
 الآن على شفثيك انما هي حكم عليّ وعليك بالسعادة أو
 بالشقاء . »

صمتٌ وضغطتُ على يدها فضغطتُ على يدي بأنامل ملتبهة
 وقد بدا التأثر في وجهها وحركاتها . والسماء الزرقاء المنشورة
 فوق رأسي لم أرها حيايتي على جمال ظهرت فيه الآن وقد هدّدتها
 الزوبعة وأنفذت إليها الغيوم واحدةً بعد أخرى .

ثم قالت كمن يتعمد تأجيل القرار النهائي: « ولماذا تحبني ؟ »
 أجبت « بل سلي الطفل لماذا ولد ، والشجرة لماذا أزهرت ،

وسلي الشمس لماذا بزغت فأنارت الكون ! لماذا أحبك يا بنية ،
لأنه يجب أن أحبك . وإن شئت إسهاباً فدعي الكتاب الذي
تحبين يتكلم لأجلي :

« أفضل الناس يجب أن يكون أعز الناس إلينا دون أن
نعماً بما يلحقنا بسببه من ربح وخسارة ، أو مساعدة وإهمال ،
أو شرف وذل ، أو ثناء ومذمة ، أو أي أمر من الامور .
أحسن الاشياء وأشرفها يجب أن يكون أعزها إلينا لا لسبب
آخر سوى أنه الاحسن والاشرف . وعلى هذا المبدأ ينظم المرء
حياته الداخلية والخارجية لأن بين الاشخاص تغييراً فيكون
هذا خيراً من ذاك وفقاً لمقدار ما يظهر فيه من الخير الاسمي
الذي يتجلى في أفراد أكثر منه في غيرها . والفرد الذي يكثر
فيه تجلي الخير الاسمي هو الاحسن ، والذي يقل فيه ذلك التجلي هو
الأقل حسناً . فعلينا أن ننتبه لهذا الاختلاف بين الناس حتى
إذا اهتدينا إلى خيرهم أحببناه وأعززناه والتصقنا به طلباً
للاتحاد الدائم » .

« وأنتِ ، يا ماري ، خير من عرفت لذلك أحبك وأنتِ
عزيزة عليّ . وكلانا يحب الآخر . فقولي الكلمة الواحدة التي
تكبر وتحيا فيك - قولي أنك لي ! لا تخوني قلبك ولا تخدعي
عواطفك . أعطاك الله حياة معذبة ثم أرسلني اليكِ لأخففها

عنك ؛ فألمك ألمي ، وسنحمل هذه الآلام معاً بشجاعةٍ كما
تخترق البحر السفينة العظيمة رغم عواصف الحياة وأعاصيرها
حاملة الاثقال الباهظة وتوصلها إلى الشطّ الأمين . تكلمي يا بنية
وضعي رأسك على ساعدي .

فهدأ روعها وخضب الاحمرار وجنتيها كما تخضب حمرة
الشفق رؤوس الجبال ؛ ثم فتحت عينيها البرأقتين كشموس
منيرة وقالت : « أنا لك . أنا خاصتك لأن تلك مشيئة الله .
اقبلي كما أنا : فسأظل لك ما حييت وليجمعنا الله في حياة أبهج
من هذه وليكافئك خير مكافأة !

وضعت قلبي قرب قلبها ليخفقا سوية ، وأوقفت شفتاي
الكلام على الشفتين اللتين نطقتا بدوام سعادتي كما أوقف الزمان
دورته ، وتلاشى العالم حولنا ولم يمكث فيه غيرنا برهة خلّتها
دهراً - دهر غرام وهناء . ثم زفرت زفرة عميقة هامة
« اغتفر لي يا ربي كل هذه السعادة ! والآن اذهب ودعني
وحدي لعلنا نلتقي مرة أخرى ، يا صديقي ومحبي ومستودع
غبطتي !



هذه آخر كلمات سمعتها منها . عدت إلى غرفتي ونمت نوماً

طويلاً مثقلاً بالأحلام المزعجة . وبعد انتصاف الليل دخل عليّ الطبيب وقال : « لقد انتقلت ملكنا الطاهر إلى حضن خالقها . وهذه ودیعة منها اليك » .

فضضتُ الكتاب فوجدت فيه ذلك الخاتم المنقوش عليه « كما يشاء الله » وكانت أعطتني في طفولتي ثم رددته اليها ، وكان ملفوفاً بورقة كتبت عليها الكلمات التي فهمت بها ساعتئذ « كل ما لك هو لي - خاصتك ، ماري » .

جلست وجلس الطبيب وغرقنا في بحرانٍ عقليٍّ يعرفه كل من فوجئ بياس لا رجاء بعده . أخيراً نهض الشيخ ومسك بيدي قائلاً - « نحن نلتقي اليوم للمرة الأخيرة : أما أنت فعليك أن تغادر المكان ، وأما أنا فأيامي معدودة . غير اني أود أن أبوح لك بسر حملته دفيناً في صدري طول الحياة ولم أطلع عليه أحداً ، والآن بي حاجة ماسة إلى إفشائه ، فاصنع إليّ . ان الروح التي فارقتنا روح شريفة طاهرة والقلب الذي غادرنا قلب صادق عميق . عرفت قلباً آخر كهذا وروحاً كهذه الروح - بل أبهى منها ، هي روح والدتها . عرفت والدة هذه الفتاة قبل زواجها فأحببتها وأحببني . كنا فقيرين فأنشأت أجد وأكدّ لانتشلها من مخالب العوز والفاقة ولأصل إلى مكانة اجتماعية تليق بي وبها . وقبل أن أدرك غايي اجتمع بها الامير الشاب وأحبها .

ولما رأيت أمير بلادي مولماً بها يبذل ما في وسعه ليعلي شأنها ويرفعها ، هي اليتيمة البائسة ، الى مرتبة الإمارة - شعرت بوجود تضحية سعادتي لأجلها لأن حيي لها كان أقوى من حيي لنفسي . فغادرت البلدة وتركت لها خطاباً فيه حالتها من وعودها . ولم أرها بعد ذلك إلا وهي على فراش الموت عقب ولادة ابنتها هذه . يمكنك بعد هذا الإقرار أن تدرك مقدار حيي لحبيبتك وإني إنما كنت أحاول إطالة عمرها يوماً فيوماً لأنها كانت الشخص الوحيد الذي يربط قلبي بالأرض .

« والآف ! سر في طريقك يا بني » واحتمل الحياة كما احتملتها ، ولا تصرف يوماً واحداً في الغم العقيم . ساعد ما استطعت المحتاجين من إخوانك البشر ، وأحببهم جميعاً ، واشكر الله الذي أنعم عليك في هذه الحياة الجرداء بقلب كقلبها ، وحب كحبها ، وروح كروحها - وإن فقدتها !

فقلت ممثلاً : « كما يشاء الله » . وافترقنا افتراقاً لم يكن بعده من لقاء .



لقد مرت الأيام والاسبوع والشهور والاعوام ساجدة في بحر الابدية . وطني صار لي أرضاً غريبة وبلاد الغرباء أصبحت وطني . لكن حب فتاتي لا يزال حياً في . وكما تسقط دمعته القلب على مياه البحار كذلك غرق حيي لها في بحر حيي للإنسانية

بأسرها - حبي الذي يشمل ملايين من أولئك الغرباء الذين
لا يعرفونني وقد شغفت بهم منذ حداثتي .



إنما في أيام الصيف الساكنة الحارة كهذا اليوم ، عندما أخلو
بالغابة الخضراء في حضن أمي الطبيعة ، وتتوه بي أفكارني فلا
أعود أدري ما إذا كان في العالم اناس غيري أم أنا ووجدتُ
وحدي على الارض ، ذاك تحدث حركة في مقبرة حافظتي وتنهض
الذكريات السحيقة من مدافنها وترجع قوة الحب القديم قابضة
على فؤادي بشدة فأنادي تلك الفتاة الجميلة ، فتأتي إلي وتحدق
في مرة أخرى بعينيهما العميقتين اللتين لا قرار لهما . عندئذ
يتجمع حبي للإنسانية ويتجسم في حبي لشخصها - لشخص
ملكي الحارس . فتخرس أفكارني وتجنو عواطفني أمام سر
الاسرار الغامض ، سر الحب المتناهي وغير المتناهي .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
١١	مقدمة
٢٢	العلامة اللغوي مكس مولر
٢٩	مقدمة المؤلف
٣١	الذكرى الأولى
٣٧	الذكرى الثانية
٤٥	الذكرى الثالثة
٥٢	الذكرى الرابعة
٦٣	الذكرى الخامسة
٨١	الذكرى السادسة
٨٨	الذكرى السابعة
١٠٢	فتاة الجبل
١١٣	الذكرى الأخيرة

مؤلفات مي زياده

أدب - قصة - نقد - اجتماع - تاريخ - عمران - فن - حضارة

كلمات وإشارات جـ	باحثة البادية
كلمات وإشارات جـ	وردة اليازجي
ظلمات وأشعة	عائشة تيمور
الصحائف	بين البحر والمد
سوانح فتاة	المساواة
ابتسامات وذموع	غاية الحياة
جسوع الموجة	أحب في العذاب

ابتسامات ودموع

ليس في الثلث الأول من هذا القرن صوت أدبي نسائي
أشجى من صوت مي زيادة.

وليس من فكر كفكرها يلتصق فيضياً داعياً إلى الحرية
والتقدم مجارة لركب الحضارة في شتى الميادين
والسبل.

وهي في كل ما كتبت تجسد طموح الأقلام المستنيرة
إلى التجديد الأدبي إبداعاً في الشكل التعبيري وفي
المضمون الفكري، فضلاً عن أنها تجسد طموح المرأة
العربية إلى الحياة، وطموح الأمة إلى الدخول في حركة
العصر وبناء المجتمع والوطن.

... ابتسامات ودموع عن هذا الكتاب الرائع
كتبت مي تقول: ستحب هذا الكتاب سواء كنت معلماً
أو متعلماً فيلسوفاً أو شاعراً، سياسياً أو تاجراً، سعيداً
أو شقيماً، كبيراً أو صغيراً، ستحب فيه وبه كما تحب
وسيفتزعك من ميدان المزاومة والمنافسة والحق
والتهمك والحسد والإجهاد، إذ هو يمثل لك فصلاً من
ماضيك وحاضرك ومستقبلك جميعاً في آن واحد.

حسبه أن ينبه فيك الذكريات الحلوة المزة من
مباغطات الحب والحياة والموت والابتسامات والدموع
وهي إرث بني الإنسان أجمعين....

الناشر